

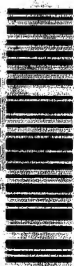


قَوْصٌ فِي التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ مُحَمَّدُ عَبْدُ الْحَكِيمِ الْحِجَاجِي



المكتبة الوطنية العامة للكتاب -

0172864



Library Alexandria

96

اهداءات ٢٠٠١

المستشار/ رابع لطفي جمعة

القاهرة

المكتبة الثقافية

٣٦٣



فتوص في التاريخ الإسلامي

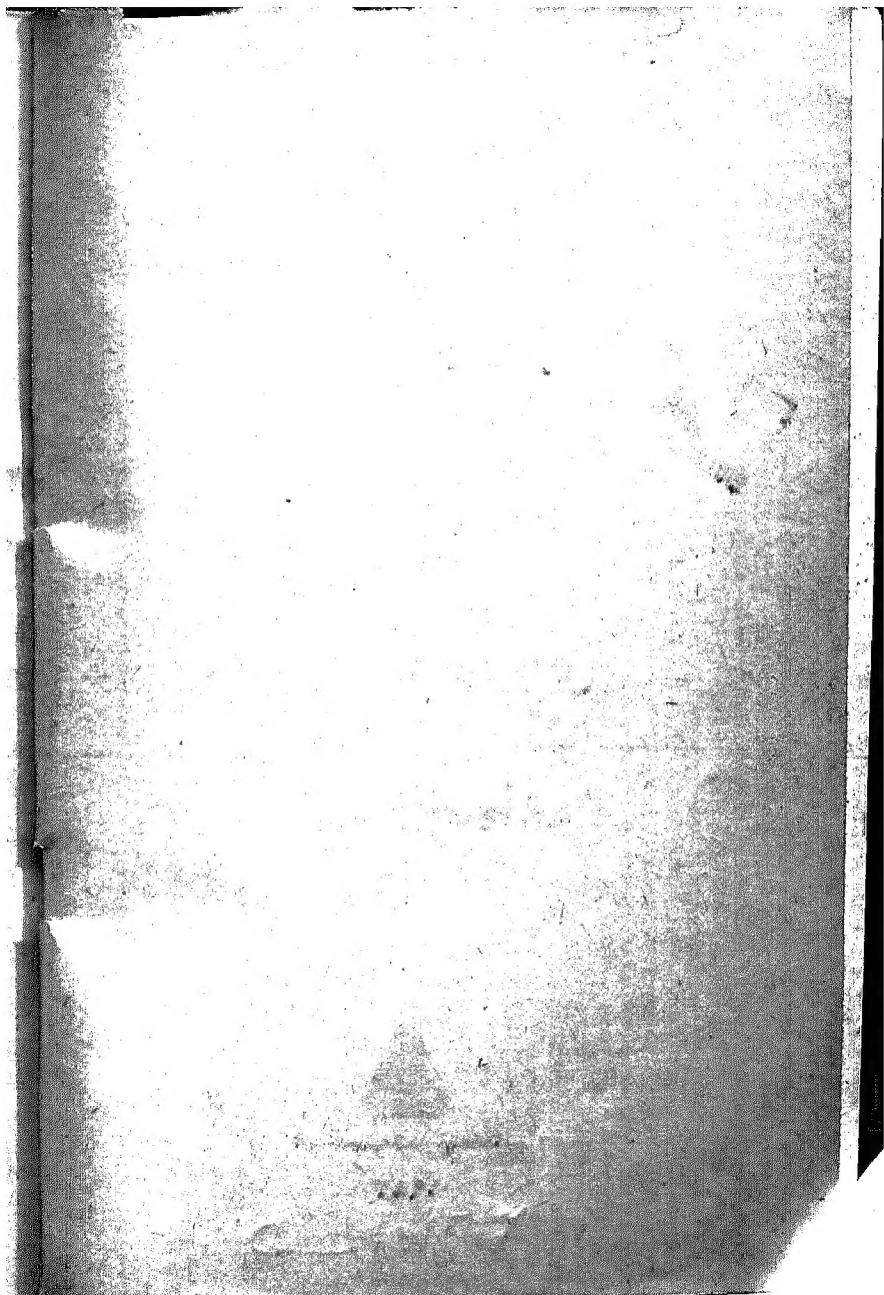
محمد عبده الحجاجي



المكتبة العامة للكتاب

١٩٨٢

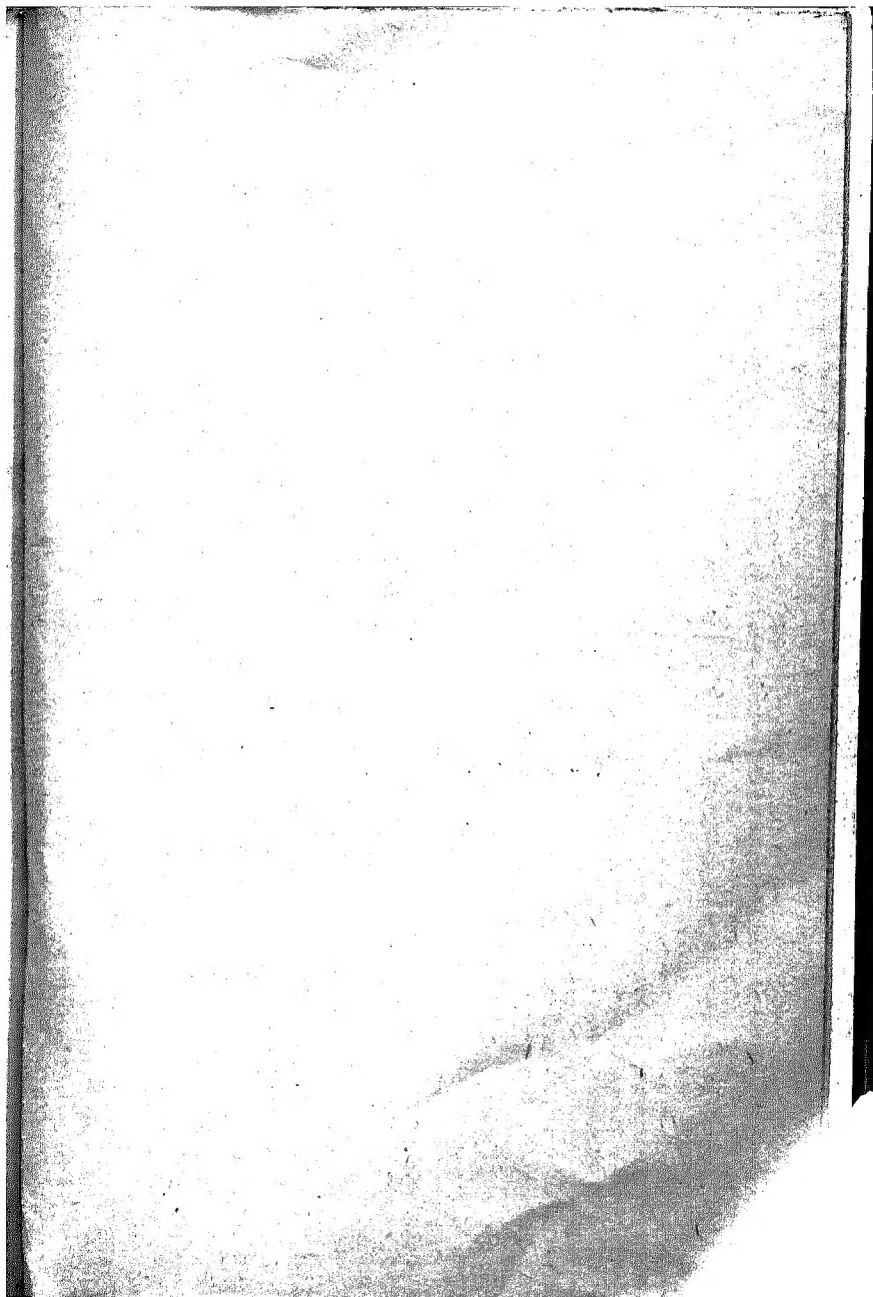
٢٦١٥١ - ٥



الاهداء

الى والدي

تحية اعزاز واجلال



تمهيد

كانت مصر قبل الفتح العربى ولاية رومانية مقسمة الى قسمين كبيرين ، هما : الوجه البحرى ، أو أسفل الأرض ، والوجه القبلى ، أو الصعيد أو أعلى الأرض وكان كل قسم من هذه الأقسام مقسما الى وحدات ادارية صغيرة يعرف كل منها باسم « نوم » nome الا أن العرب قد أبدلوا باسم « نوم » هذا كلمة كورة وهى التى تؤدى معنى الناحية أو المركز فى مفهومنا العصرى ، وقد بلغ عدد هذه الكور ثمانين كورة فى الوجهين البحرى والقبلى وكانت كل كورة تنقسم بدورها الى عدة قرى ولكل من الكورة والقرية زمام أطيان خاص بهما ٠٠ وقد كان يتولى شئون ادارة الكورة نائب أو رئيس وهو ما يشبه مأمور المركز فى عصرنا الحالى وشئون القرية زعيم وهو ما يشبه أيضا العمدة .

وحينما فتح العرب مصر فى سنة ١٨ هـ - ٦٤٠ م لم يحدثوا أى تغير يذكر على هذا التقسيم الإدارى إذ وجدوا أن هذه الدولة كغيرها من الدول التى فتحوها ذات نظام ادارى ثابت مبنى على حضارة أصيلة ومدنية

عريقة لكنهم أحدثوا من الإصلاح ما يتفق مع عقائدهم الدينية ويتمشى مع مصلحة الأمة المحكومة . (١)

وقد ظل هذا التقسيم معمولاً به إلى أن فتح الفاطميون مصر في سنة ٢٩٧ هـ - ٩٠٩ م فأحدثوا نظام الأعمال ومفردة عمل وهو الاقليم أو المديرية أو المحافظة في وقتنا الحاضر وكان كل عمل من هذه الأعمال يشتمل على عدد من الكور - المراكز وذلك لكي يسهل حكمه ويصير متماسك البنیان مندمج الاشراف في الادارة المحلية مع الادارة المركزية فيصبح كأنه وحدة متصلة الأجزاء حتى يمكن ادارتها ادارة سليمة منتجة وقد ظل هذا التقسيم في جوهره قائماً حتى يومنا هذا .

وكان على كل عمل أو اقليم أمير أو وال أو رئيس يتولى شئون الاشراف على عمله أو اقليمه فيسعى إلى استتباب الأمن ويحافظ على أرواح الناس وأموالهم وينفذ ما يصدره له الخليفة أو السلطان من أوامر وتعليمات ويتخذ له مقراً دائماً في عاصمة عمله أو اقليمه .

وقد بلغ عدد هذه الأعمال في الوجهين البحري

(١) الدكتور عطية مصطفى مشرفه ، نظم الحكم في مصر في عصر الفاطميين ص ١٠٢ ، ١٢٤ المستشرق الفرنسي لافاريت ، دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة الصعيد ترجمة الأستاذ صبحي ، وسبأ ماهر ، محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية في العصر الإسلامي ص ٣

والقبلى ستة وعشرين عملا ينفرد الصعيد منها بتسبع أعمال وهى : « الجيزة ومقر ولايته الجيزة والاطفيحية ومقر ولايته أطفيح التى تتبع حاليا مركز الصف التابع للجيزة ، والبهنساوية ومقر ولايته مدينة البهنسا وهى الآن من قرى مركز بنى مزار التابع للمنيا والفيومية ومقر ولايته الفيوم ، والاشمونية ومقر ولايته مدينة الاشمونين وموضعها الآن بالقرب من المنيا والمنفلوطية ومقر ولايته منفوط ، والسيوطية ومقر ولايته سيوط (١) والأخميمية ومقر ولايته أخميم ، ثم يليه مباشرة القوصية وهى من أكبر الأعمال فى الصعيد ينتهى آخره الى مدينة أسوان ومقر ولايته قوص .

وقد بلغت مدينة قوص منذ عصر الدولة الفاطمية ٢٩٧ هـ - ٩٠٩ م حتى أواخر حكم المماليك ٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م أى ما يقرب من ستة قرون ونصف قمة مجدها وشهرتها حتى أن الكثيرين من المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب قد أسهبوا فى وصفها وذكرها محاسنها وما كانت تتمتع به من مكانة مرموقة وصيت بعيد بين مختلف مدن الديار المصرية .

ولقد رأينا والأمر كذلك أن نقدم صورة تاريخية لهذه المدينة الخالدة التى لعبت دورا كبيرا فى تاريخ مصر

(١) كانت تسمى فى العصر الاسلامى سيوط مجردة من الألف كما وردت فى أغلب كتب الجغرافيين والرحالة العرب .

الاقتصادي والثقافي خلال العصر الاسلامي اقتنعينا فيها
أثر من سبقونا من المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب
الذين نخص بالذكر منهم : « عبد الغفار بن نوح الأقصري
المتوفى ٧٠٨ هـ - ١٣٠٨ م الذي عاش في اقليم قوص في
عصر المماليك ووضع مؤلفا في جزئين بعنوان (التوحيد
في سلوك أهل التوحيد) (١) تحدث فيه عن كثير من
رجال التصوف وأهل العلم والفضل الذين عاشوا
في الصعيد بالإضافة الى أنه أعطى صورة دقيقة للمجتمع
الذي عاش فيه وكذا أبو جعفر الأديب المتوفى ٧٤٨ هـ -
١٣٤٧ م في كتابه « الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء
الصعيد » الذي يعتبر موسوعة قيمة لدراسة الصعيد
وأهله في عصر الأيوبيين والمماليك ، يضاف الى هذين
المصدرين الأساسيين في هذه الدراسة بعض من كتب
التراجم والطبقات التي ألغت في عصر المماليك مثل
« الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » لابن حجر
المسقلاني المتوفى ٨٥٢ هـ - ١٤٤٨ م ، « والنجوم
الزاهرة » لابن تغري بردى المتوفى ٨٧٤ هـ - ١٤٦٩ م ،
« والضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » للسخاوي
المتوفى ٩٠٢ هـ - ١٤٩٦ م وغيرهم الكثير أيضا ، ولقد
استفدنا وقتنا طويلا نفتش في بطون هذه المصادر أو نعيد
الى كشافات الاعلام والأماكن الملحقه بآخرها علنا نلتقط

(١) مخطوط بقار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٦ تصوف

علما من الاعلام ينتعجب الى قوص أو واقعة تاريخية لعبت فيها هذه المدينة دورا هاما أو أية معلومة من شأنها أن تلقى ضوءا على تاريخ مدينتنا هذه فنمت بين أيدينا من خلال كل ذلك مادة علمية تستحق الكتابة والتسجيل وقد قسمنا هذه الدراسة الى ستة فصول : -

الفصل الأول :

التقسيم الإداري لاقليم قوص في العصر الاسلامي ، محاسن هذا الاقليم ومميزاته ، القبائل العربية التي كانت تعيش في هذا الاقليم منذ أوائل الفتح العربي حتى أواخر حكم الأيوبيين .

الفصل الثاني :

قوص - الموقع الجغرافي ، تسميتها بهذا الاسم ، لماذا اختيرت عاصمة للصعيد ، وصفها كما جاء على لسان أبنائها من شعراء وعلماء ومؤرخين ، قوص من خلال كتابات المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب في العصر الاسلامي .

الفصل الثالث :

بناء المجتمع القوصي ، الطبقات ، طبقة الولاة والحكام ، القضاة والعجّاب ، العلماء والفقهاء ، التجار والصناع .

الحرفيون وعامة الشعب ، النصارى ، الأقليات الأجنبية
المرأة ومدى نشاطها .

الفصل الرابع :

المنشآت والمباني ، الأسواق والحواريات ، المواسم
والاعياد الدينية ، موسم الحج ، الطريق من قوص الى
الأراضى المقدسة ، الى صحراء عيذاب ركوب البحر ، المراكب
العيذابية ، وسائل اللهو والتسلية ، الغناء والغنون .

الفصل الخامس :

الحركة العلمية ، فى قوص فى العصر الاسلامى ،
مدارس قوص وجوامعها ، خزائن الكتب والمكتبات ، العلوم
التي كانت تدرس بهذه المدارس وأساتذتها ، الأدب
وفنونه ، الكتابة والتأليف ، حركة النسخ ، الحياة
الروحية الشيعة والمتشيعون فى قوص .

الفصل السادس :

الآثار الاسلامية فى قوص فى العصر الاسلامى .

وبعد :

فلنسأ نزعماً إطلاقاً أن هذه الصفحات هي كل
ما قيل أو كتب عن مدينة قوص هذه ويخيل إلينا أن

لهذه المدينة في العصر الاسلامي تاريخا حافلا بالأحداث
والمواقف الخالدة ما زال يرقد في بطون المراجع المخطوطة
بصفة خاصة والتي يتعذر الوصول اليها ، وما هذه
الصفحات في اعتقادنا الا محاولة لاماطة اللثام والقضاء
بعض الضوء على تاريخ قوص في عصرها الذهبي ، نرجو
الله أن نكون عوناً لجيلنا الصاعد وشبابنا الناهض الى مزيد
من البحث والتنقيب عن قوص وغيرها من المدن ذات التاريخ
والحضارة في العصور المختلفة ، وعلى الله قصد السبيل .

محمد عبد المجادى

[illegible]

الفصل الأول

- التقسيم الإداري لاقليم قوص في العصر
الاسلامي

- معاصر هذا الاقليم ومميزاته

- القبائل العربية التي كانت تعيش في هذا
الاقليم منذ اوائل النتح العربي حتى اواخر
حكم الأيوبيين .



التقسيم الإدارى لاقليم قوص فى العصر الاسلامى

كان اقليم قوص فى العصر الاسلامى مترامى الاطراف تبلغ مساحته فى الطول - كما يقول الادفوى - مسيرة اثني عشر يوما يسير الجمال السير المعتاد ، وأما عرضه فشلات ساعات وأكثر وأقل بحسب العامر من الأماكن (١) ويمتد شرقا حتى يصل الى البحر الملح (الأحمر) وغربا حتى الواح أى (الواحات) ويتجه شمالا حتى مرج بنى هسيم المتصل بأراضى جرجا من عمل أخميم وينتهى جنوبا بمدينة أسوان (٢) .

ويضم هذا الاقليم فى حوزته العديد من المدن والقرى التى بلغت فى عهد الدولة الأيوبية كما أحصاها ابن ممتى المتوفى ٦٠٦ هـ ١٢٠٩ م فى كتابه (قوانين الدواوين) تسعة وثلاثين موضعا (٣) .

(١) الادفوى . الطالع السعيد ص ٧

(٢) المصدر السابق ص ٨ - ٩ .

(٣) ابن ممتى . قوانين الدواوين ص ١٠٨ - ١٠٩ .

وفي عصر سلاطين المماليك أدخل على هذا التقسيم كثير من التعديلات فالحقت به مدين ومواضع لم تكن تابعة له في عصر الأيوبيين . وقد اختلف مؤرخو عصر المماليك في تعداد مدن هذا الاقليم ومواضعه حيث لوحظ ان الكثير من هؤلاء المؤرخين يذكرون مدنا وقرى ومواضع يغفل عن ذكرها البعض الآخر ، فالادفوى يجعل عدد مدن وقرى هذا الاقليم واحدا وخمسين موضعا بما فيها قوص (١) على حين أن ابن دقماق المتوفى ٨٠٩ هـ ١٤٠٦ م في كتابه (الانتصار لواسطة عقد الامصار (٢)) في حديثه عن هذا الاقليم يورد سبعة وأربعين موضعا وفي عهد السلطان قلاوون أحصى بن الجيعان المتوفى ٨٨٥ هـ - ١٤٨٠ م في كتابه (التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية) البلاد التابعة لهذا الاقليم فجاءوا اثنين وأربعين موضعا بما فيهم ثغر عيذاب (٣) الذي يقع على ساحل بحر القلزم (٤) (البحر الأحمر) وقد اعتنى

(١) الادفوى ، الطالع السعيد ص ٩ - ٢٤ .

(٢) ابن دقماق . الانتصار لواسطة عقد الامصار ج ٥ ص ٢٨-٣٠

(٣) عيذاب بالفتح ثم السكون وذال معجمة وآخرة ياء مؤنثة بليدة على ضفة بحر القلزم وهي مرسى المراكب التي تقدم من عدن الى الصعيد . قاله ياقوت في معجم بلداته تحت مادة عيذاب .

(٤) القلزم بالضم ثم السكون ثم زاي مضمومة وميم والقلزمة من ابتلاع الشيء يقال قلزمه اذا ابتلعه . وسمى بحر القلزم قلزما لانتهامه من يركبه . قاله ياقوت تحت مادة قلزم .

ابن الجيعان في كتابه التحفة السنية بتحديد مساحه الاراضى المنزرعة وغير المنزرعة وقيمة عيرتها أى خراجها ودخلها كما أشار الى تبعية كل مدينة أو موضع لأمير من أمراء النماليك الذى لان يطلق عليه فى ذلك الوقت (المقطع) وذلك صبا لنظام الافطاح الذى لان معمولاً به فى العصور الوسطى فى حديثه عن مدن ومواضع اقليم قوص الذى يعنينا قد اوضح أمام كل موضع من مواضع هذه الامور بصورة تعين الباحث الذى يريد ان يقف على مدى تقدم هذا الاقليم فى جانب الحياة الزراعية (١) لكننا سوف نعتد فى دراستنا هذه على التقسيم الذى أورده أبو جعفر الادفوى فى كتابه الطالع السعيد وذلك لأن أبا جعفر الادفوى قد قسم هذا الاقليم تقسيماً جغرافياً سليماً فقد جعله كورتين شرقية وغربية والنيل فاصل بينهما ثم قسم كل كورة على حدة ، فكان فى ذلك أكثر وضوحاً من غيره من المؤرخين الذين اعتمدوا فى تقسيمهم على ترتيب المدن والمواضع ترتيباً هجائياً نضيف الى ذلك أن أبا جعفر الادفوى بحكم نشأته وتربيته فى هذا الاقليم كان ملماً تماماً تماماً بكل مدينة أو موضع فيه كما أنه كان دقيقاً الى حد كبير فى ضبط أسماء هذه المدن والمواضع ضبطاً سليماً بجانب أنه اعتنى أيضاً بكيفية نطقها عند الضامة

(١) ابن الجيعان : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية

فمثلا فى حديثه عن مدينة ادفو نراه يورد أن بعضهم يجعلها
بالتاء أى اتفو (١) وهو نطق لهذه المدينة ما زال شائعا
على لسان العام والخاص حتى يومنا هذا •

فيقول فى تقسيمه لهذا الاقليم : هو كورتان أى ناحيتان
شرقية وغربية والنيل فاصل بينهما فأول الشرقية من
بحرى أرض افيو وهو مرج بنى هميم (أى القياثل العربية
التي سكنت الصعيد) والمتصلة أراضيها بأرض جرجا
من عمل اخميم وآخرها من قبلى أبهر بضم الهمزة وضم
الهاء وهى قرية ، ويلى هذه القرية قرية تسمى جنوبية أول
أراضي النوبة ولسلطان مصر على هذه القرية مقدر يؤخذ
منها •

وتفصيل مدن هذه الكورة وقراها المعتبرة وأولها
(المرج) وتليها (الخيام) ويليها (البمبير) المعروفة
الآن بنجع الأمير من توابع ناحية البلايش بحرى مركز
البلينا ويليها (القوسة) المعروفة حاليا بنجع القوسة
من توابع ناحية البلايش قبلى ويليها (قصر بنى شادى)
وهو قصر بنى كليب ذكره ابن ممتى فى قوانين الدواوين
ويليها (فاو بعش) تشترك مع قاو - بالقاف - من بلاد
أخميم ثم فاو ويليها دشنا ويليها بيج وهى المعروفة حاليا
بنجع البيجة بالطوايبة المجاورة لناحية السمطا ، وهى من
أوسع الاقاليم أرضا ثم يليها (قنا) وهى بقاف مكسورة

(١) الادفوى : الطالع السعيد ص ٢٤ •

ونون مخففه وقد ذكرها بعضهم (افنى) ويلى فنا (ابنود)
 بالفتح ويليهما (قعط) ويلى قعط (قوص) وهى مدينه
 العمل الان • وشرقى قوص (العباسه) وشرقى العباسه
 قريه يقال لها (مسجد النبى) وتسمى (اطسا) • وقبلى
 قوص قري لطيفه مضاف اليها (كدمش) (والناعمة)
 (وبوقلته) وقد اندرست ويستندل على مكانها الآن بمقام
 سيدى أبو قلة الكائن حاليا بأراضى ناحية الخرانقة مركز
 قوص ويليهما (شنهور) بالنسب المعجمة المفتوحة ويليهما
 (الأقصر) ويليهما (طود) وكانت بلدا كبيرا نزل بها بنو
 شيبان احدى القبائل العربية الأصيلة وهم المعروفون حاليا
 على لسان العام والخاص من أبناء الصعيد (بالشيبانية)
 وبعدها أى طود هذه (منايل) ومفرده منيل وهى الجزيرة
 التى يكونها النيل أى انه بعد طود عدة جزر صغيرة تمتد
 حتى تصل الى أراضى اسنا ثم تمتد هذه الجزر حتى تصل
 أيضا الى أراضى ادفو ثم (أسوان) بضم الهمزة وهى ثغر
 من الثغور المعروفة ويليهما منايل أيضا • أما الكورة الغربية
 فأولها (برديس) بالباء الموحدة المفتوحة تتصل أراضيهما
 بأراضى جرجا من عمل أخميم ثم يليها (البلينا) بضم الباء
 الموحدة وسكون اللام ويليهما قرية (بنى غازى) وهى من
 قرى سمهود ثم (سمهود) بسين مهملة مضمومة وميم
 ساكنة وهاء مضمومة ثم قرية (ابن يغمور) وهى أيضا من
 قرى سمهود ثم (مخانس) وهى بميم مفتوحة ثم (جرشوط)

وأوردها بعض المؤرخين بالفاء أى فرشوط وهو الاسم
المعروفة به حاليا ثم (بهجورة) وهى بباء موحدة مفتوحة
ثم (القرية) وهى المعروفة حاليا بنجع القرية من توابع
ناحية دندرة مركز قنا ثم (دندرا) ثم (دير البلاس) ثم
(طوخ دمنو) وهى التى تعرف حاليا بنجع كوم الضبع من
توابع ناحية طوخ مركز قوص ثم (نقاده) ثم (دنفيق)
ثم (دير قطان) المعروف حاليا بنجع قرطان ثم (شوص
الكبرى) المعروفة حاليا (بنجع صوص) من توابع ناحية
البحرى قمولا ثم (شوص الصغرى) ثم (سمنت) وهى
المعروفة حاليا بنجع اسمنت الكبيرة من توابع ناحية
الأوسط قمولا ثم (بشلاو) وهى المعروفة الآن بنجع
بشلاو احدى توابع الأوسط قمولا على الجانب الغربى من
النيل ثم (دراو) وهى المعروفة حاليا بنجع دراو من توابع
ناحية الأوسط قمولا وليست هناك صلة بينها وبين دراو
التي تتبع أسوان حاليا وإنما هو تشابه أسماء فقط ثم
(شطلفنيه) بفتح الشين المعجمة وهى المرسى حاليا ثم
(ارمنت) ثم (الدمقراط) وأوردها بعضهم بالدمقرات
بالتاء وهى معروفة حاليا بهذه التسمية ثم (بسوية)
وهى ببائين موحدين وواو وياء آخر الحروف وقد اندثرت
هذه الناحية ومكانها اليوم البقعة التى بها مقام الشيخ
موسى بجبل موسى باراضى ناحية كيمان المطاعنة ثم
(طفنيس) ثم (أسفون) وقد وردت أيضا بالصاد ثم
(اسنا) ثم (ادفو) وينطقها العامة حاليا (اتفو) بالتاء

ثم (بمبيان) بباء موحدة وميم وباء موحدة وألف ونون ثم أراضى أسوان المتصلة بالنوبة . وبهذا ينتهى التقسيم الذى أورده العلامة أبو جعفر الادفوى لاقليم قوص (١) .

وبعد أن انتهى الادفوى من تقسيمه الادارى هذا استطرد يتحدث عن محاسن هذا الاقليم ومميزاته فيقول عن مائه انه أحسن المياه وأحلاها وأن نخيله يمتد على شاطئ النيل ، وقد بلغت الاراضى التى يغطيها هذا النخيل والبساتين بنحو من عشرين ألف فدان . وقد ترتب على كثرة هذا النخيل أن غزر محصول التمر فقد جمع محصول التمر فى احدى السنوات بأسوان فبلغ ألف أردب كما أن نخلة بالقوصة من عمل المرج وأخرى بقامولة حصل من كل منها على اثنى عشر أردبا من التمر فى سنة من السنين . ثم يقول عن فاكهة هذا الاقليم عموما أنها شديدة الحلاوة حسنة المنظر فيروى أيضا عن العنب أن حبة منه وزنت منه بادفو فجاءت زنتها عشرة دراهم وأخرى احدى وعشرين درهما كما أن بطيخه يمتاز بكبر حبته التى لا يكاد يستقل بحمل الحبة الواحدة الا الرجل الشديد القوة ، وتفوح فى مختلف جهات هذا الاقليم رائحة رياحينه العطرة ، وقد اشتهر هذا الاقليم أيضا بطيب أرضه حتى أن الفدان يحصل منه ثلاثون أردبا من الحبوب كالقمح والشعير والذرة وغيرها

(١) الادفوى : الطالع السعيد ص ٧ - ٢٧ .

كما اعتاز أيضا بطيب المرعى الذى ترتب عليه طيب لحم
الحيوان ولذته ، وشتاؤه طيب الإقامة مخصب كثير الألبان
طيب البقولات (١) .

وقد اكتشف فى هذا الاقليم كثير من المعادن مثل
الذهب والحديد والفوسفات والبرام التى يشير إليها
الادفوى بقوله معدن البرام (٢) . وهى الطينة الطفلية التى
تتوفر فى الأقصر وقوص وقنا التى يصنع منها البرام
والقدور التى تستخدم فى الشئون المنزلية ويشير ابن
الكندى الى انه قد تم اكتشاف النفط بهذا الاقليم فى سنة
٨٤٠ هـ (٣) ومن أبحاره الكريمة التى تم الحصول عليها
فى ذلك الوقت الزمرد والياقوت والزبرجد والرخام .

ولا ينبغي أن يغيب عن ذهننا أن هذا الاقليم بالرغم
من هذه المحاسن التى أوردتها الادفوى كانت له مساوته
أيضا فصيغه حار قانظ كثير الحشرات كالذباب
والبراغيث (٤) التى تقلق مضاجع أهله بجانب كثرة الهوام
أيضا كالعقارب والثعابين والسمام الأبرص وكلها هـوام
وحشرات سامة قاتلة ، وذلك ما ذكره كثير من المؤرخين الذين
سبقوا الادفوى فى حديثهم عن هذا الاقليم .

(١) الادفوى : الطالع السعيد ص ٢٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٣ .

(٣) نقلا عن على باشا مبارك المخطط ج ١٢ ص ١٢٨ .

(٤) على باشا مبارك : المخطط ج ١٤ ص ١٣٨ .

ولعل من أبرز الصفات التي كان يتحلى بها هذا الاقليم
فى ذلك الوقت استتباب الأمن فيه ، فقد كان الانسان يسير
فيه ليلا ومعه ما شاء فلا يجد من يعترضه ، ويروى الادفوى
أنه قد ركب مرة وأمسى الليل عليه وهو بمفرده فلم يجد
من يعترضه فربط دابته فى حجر ونام فى أمن
• وهدهوء (١)

(١) الادفوى : الطالع السعيد ص ٢٩ •

القبائل العربية التي سكنت هذا الاقليم منذ الفتح العربي حتى اواخر حكم الأيوبيين

لكي نتحدث عن القبائل العربية التي استقرت في هذا الاقليم منذ أوائل الفتح العربي ، يجدر بنا أن نقف قليلا أمام حالة مصر قبل الفتح ، فقد كانت مصر قبل الفتح العربي لها ولاية رومانية يسكنها القبط ، والقبط هذه كلمة يونانية قديمة معناها سكان مصر الذين هم من سلاسل قدماء المصريين يتكلمون اللغة القبطية المتطورة عن اللغة المصرية القديمة ، وبجانب هؤلاء نرى طائفة من اليهود الرومان وهم حكام مصر الذين أذاقوا المصريين ألوانا من العنت والاضطهاد والمذلة حتى أنهم أصبحوا يتطلعون لهفة بالغة الى من يخلصهم من ربقة هذا الظلم والطغيا حتى كان الفتح العربي لمصر ١٨ هـ ٦٤٠ م بقيادة عمر ابن العاص ووجد المصريون في هؤلاء العرب المسلمين ضاللتهم المنشودة خصوصا وأنهم قد سمعوا عن حسن معاملتهم وتسامحهم مع أهل الشام فأقبلوا عليهم وفتحوا لهم قلوبهم ، وبدأ الدين الاسلامي واللغة العربية يأخذان

طريقهما في سهولة ويسر بين كافة أبناء الديار المصرية
الا أن هناك من أبناء مصر من بقى على دينه ولم يتعرضوا
من جانب المسلمين لعنت أو أذى بل عاملهم المسلمون
معاملة تتسم بطابع التسامح والمحبة وأطلقوا عليهم أهل
الذمة أو الذميين ، والتزموا بدفع الجزية فكفلوا لهم حرية
عباداتهم ومعيشتهم (١) •

وهؤلاء المسيحيون كانوا يكثرون في قوص والأقصر
واسنا ، والدليل على ذلك أن هذه المدن كانت مليئة
بالكنائس والأديرة والقلايات (٢) التي أقامها المسيحيون
منذ فجر المسيحية •

وحيثما تم فتح العرب لمصر بدأت القبائل العربية
تزحف على مختلف مدن الديار المصرية عن طريق صحراء
سينا وعن طريق واد في جنوب صحراء مصر الشرقية
يقال له وادى العلاقي ويسميه المؤرخون العرب (أرض
المعدن) لكثرة ما به من المعادن كالتبر والذهب والزمرد
التي كانت مطمعا لعدد كبير من القبائل في الحجاز واليمن

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١

ص ٢٩٣ - ٣٢١ •

(٢) القلايات : جمع قلايه وهى مجمع أكابر الرهبان وعلماء

النصارى •

فانطلقت هذه القبائل بعائلاتها وذرائعها تبحث عن هذه المعادن وتنقب عنها ثم استقرت بالقرب من أماكنها .

وفي عصر الدولة الفاطمية بصفة خاصة امتد زحف هذه القبائل عن طريق الحجاز عيذاب ثم الحجاز القصير وذلك لسهولة هذه الطرق وسلامتها ، فاتجهت هذه القبائل في زحفها لتقيم في صعيد مصر لكثرة خيراته وطيب المعيشة فيه حينما تقطعت بها سبل الإقامة في ديارها التي تركتها . ولقد كان للفاطمين حينما فتحوا مصر أثر كبير في هجرة جموع غفيرة من القبائل العربية والقبائل البربرية المستعربة ، فمن المعروف أن الفاطمين قد اعتمدوا في تأسيس دولتهم في بلاد المغرب على هذه القبائل ، وكان في جيشهم فرق عديدة منهم ، وحينما فتح جوهر الصقلي مصر سنة ٣٥٨ هـ ٩٦٨ كان من الطبيعي أن ينتقل الى مصر حشد من هذه القبائل بانتقال الفاطمين اليها ، ولهذا يعتبر العصر الفاطمي مرحلة من المراحل الهامة في تاريخ الهجرات المغربية الى مصر عن طريق الصحراء الكبرى ولقد تأثرت الجهات القريبة من صعيد مصر بتيار زحف هذه القبائل العربية والمستعربة اليها (١) .

(١) المقرئى : البيان والاعراب عما حل بأرض مصر من أعراب
تحقيق ونشر عبد المجيد عابدين ص ١٣٢ - ١٣٣ .

وكان من أهم هذه القبائل التي سكنت الصعيد
 عموما بنو هلال الذين كانوا يقطنون الحجاز وأغلبهم
 استقر في أسوان ، وبلى وهي قبيلة عظيمة كانت تقطن
 الشام ثم زحفت الى مصر واستقر أغلبها في الصعيد ، وكان
 عليهم الاعتماد في نقل التجارة الهندية ، وجهينة وهي من
 قبائل الحجاز العظيمة ، وقد كانت منازلهم في الينبع
 ويثرب وقريش وبنى سليم وكانت مساكنهم في نجد
 وقبيلة البجة وهي إحدى القبائل البربرية المستعربة التي
 صحبت الفاطميين الى مصر واستقرت في الجزء الجنوبي
 من الصعيد ، ومن أهم بطونها العبادة والبشارية الذين
 يعيشون في الوقت الحاضر معيشة البدو الرحل
 ويستغلون بترية الماشية والأغنام ويكثرون في الصحراء
 الشرقية في المناطق الواقعة من أسوان حتى بلاد النوبة
 والجعافرة الذين ينتسبون الى جعفر الطيار ويكثرون
 في ادفو ودراو وأسوان . بنو شيبان هم أهل مكارم
 نزلوا فقط الطود وبنى اللط بقوص والأشراف الجمامزة
 الذين ينتسبون الى الأمير جمال الدين جمار وهو
 شريف حسيني كان أميرا بالمدينة المنورة ثم زحف الى
 الديار المصرية في أواخر حكم الأيوبيين واستقر بقنا .
 والهواره وهم ينتسبون الى عرب الحجاز ، ومنهم من يقول
 ان أصلهم بربر من المغرب ، وعرب الحمدات استقروا أيضا
 بقنا والأشراف الحجاجية الذين ينتسبون الى سيدى
 يوسف أبى الحجاج الاقصرى الشريف الحسينى العراقى

الأصل ، وقد استقروا في الأقصر وقوص والكلاحين
والرواجع وعرب حجازة وأولاد عمر وبنو حامد والانصار
وغيرهم كثيرون قد استقروا في أنحاء متفرقة من إقليم
قوص (١) .

بجانب هذه القبائل العربية المتعددة كانت هناك
أسر وعائلات مختلفة تمر بأغلب مدن الصعيد في طريقها
الى بلاد المشرق أو المغرب في تجارتها المختلفة ، أو في
أدائها لفريضة الحج ، استهوتها مدن الصعيد هذه لطيب
الاقامة فيها وكثرة خيراتها ووداعة أهلها وحسن معاملتهم
فاستقر على أثر ذلك بعض هذه الأسر والعائلات في ربوع
الصعيد المختلفة واستوطنتها ، فنحن نقرأ في كتب التاريخ
والطبقات وبصفة خاصة في الطالع السعيد للأدقوى عن
كثير من هذه العائلات والأسر التي انتسبت الى بلاد من
المشرق أو من المغرب كسبته والمهدية وقرطبة والقروان
وفاس وبغداد وسهرورد وسمرقند ونصيبين ومكة
والمدينة ودمشق وعسقلان وغيرها ، تتردد النسبة
اليها في أرض الصعيد حتى أننا نقرأ أو نسمع أيضا عن

(١) لافايت (مستشرق فرنسي) دائرة المعارف الاسلامية تحت
مادة الصعيد . ترجمة الأستاذ مكيه القريزي . البيان والاعراب
في صفحات متفرقة زامباور معجم الانساب ص ١٠٣ عمر رضا كحالة
معجم القبائل العربية مصطفى كامل شملول عروبة مصر من قبائلها .
محمد عبده الحجاوي : شخصيات صوفية في صعيد مصر في العصر
الاسلامي (توطئة) .

يسمى بالقرطبي القناني أو السبتي القوصي أو القيرواني
الاستائي أو العسقلاني الادفوي وما الى ذلك . وكل هؤلاء
في الواقع ينتسبون الى قبائل عربية أو مستعربة استقرت
في هذه المدن وسواها حتى وفاتها ، وكان نتيجة لكل ذلك
أن تناكحت هذه القبائل والاسر والعائلات فيما بينها
وتناسلت وأعقبت خلفا صالحا مازال ممتدا حتى يومنا
هذا .

وقد لعبت هذه القبائل دورا هاما في القضاء على
الفتن والدسائس والمؤامرات التي عرضت سياسة الدولة
الداخلية للتفكك والانهييار وكادت أن تأتي عليها ، فتقول
مصادر التاريخ المختلفة ان قبيلة ربيعة بن نازار بن عدنان
الذين اتخذوا من مدينة أسوان في أقصى الجنوب مقرا لهم
قد تعاونوا معاونة صادقة مع الخليفة الفاطمي الحاكم
بأمر الله في القبض على الثائر الأموي الاندلسي أبي
ركوة ، وكان قد لجأ الى الصعيد وهم بالفرار الى بلاد
النوبة ، فسر الحاكم بأمر الله وكافأ زعيم هذه القبيلة بأن
أطلق عليه لقب كنز الدولة وهو لقب من الالقاب التي
كان يمنحها عادة الحكام لهؤلاء الذين تزكو عندهم روح
الجهاد والتضحية والفداء وقد توارث أبناؤه من بعده هذا
اللقب فعرفوا ببني الكنز أو الكنوز (١) .

(١) المقريزي : البيان والاعراب ص ١٢٤ - ١٢٥ .

بجانب أنه كان لهذه القبائل أيضا بأسها الشديد وانتفاضاتها التي كثيرا ما أقلقت مضاجع مختلف حكام مصر حتى أن هؤلاء الحكام كانوا يخشونهم ويخافونهم . فلقد شهد الصعيد بصفة عامة وإقليم قوص بصفة خاصة ثورة عارمة اشتركت فيها بعض هذه القبائل العربية في سنة ٦٩٨ هـ - ١٢٩٨ م في عهد السلطان الناصر فلاحون ، والسبب فيها هو أن هذه القبائل نظرت الى سلاطين الماليك نظرة استخفاف واصغار لانهم ليسوا عربا وأنهم مغتصبون للحكم في مصر ، فلبسوا الأسلحة وأخرجوا أهل السجون والمعتقلات وسموا بأسماء الأمراء ، وجعلوا لهم كبيرا سموه سالار والآخر بيبرس فقطعوا الطرق وفرضوا الضرائب على التجار وأرباب المعاشات وانتهى أمر ذلك الى السلطان الناصر قلاوون فاستشاط غضبا وأحضر الأمراء والقضاة والفقهاء واستعانهم في أمر مقاتلتهم فأمّنوا بجواز ذلك ووضعت لذلك خطة محكمة اشترك فيها الأمراء وولاة الأقاليم فمنعوا السفر الى الصعيد في البر والبحر وأمروا بوضع السيف في الكبير والصغير والجليل والحقي فطوق هؤلاء الأمراء والولاة ومن ساعدتهم من الجند ببلا الصعيد على هؤلاء المتمردين وأخذوا عليهم المفايزات ، وقامت أخبار الديار المصرية على أهل الصعيد ووضعوا السيف ، كما أمروا في الكبير والصغير والجليل والحقي وأخذوا الأموال وسبوا الحرير ، وكان اذا ادعى أحد من العربان أنه حضري قيل له قل دقيق فاذا قال (دقيق بالكاف

من لغات العرب) قتل وإن قالها بالقاف المعهودة أطلق سراحه
ووقع الرعب والخوف في القلوب وأخذوا من كل جهة
فروا إليها وأخرجوا من مخابئهم وقتلوا من العربان
ما وسعهم القتل حتى جافت الأرض بهم واختفى كثير منهم
بمفاوز الجبال ، فتعقبهم الأمراء والولاة وأوقدوا عليهم
النيران حتى أهلكوا وأسر من فر منهم ، وقد خلت على أثر
ذلك بلاد الصعيد من أهلها بحيث يمشى الرجل فلا يرى
إلا النساء والصبيان ، ثم أفرج السلطان عن المأسورين
وأعادهم إلى بلادهم لحفظ الأمن (١) .

ولا ينبغي أن يغيب عن ذهننا أن هذه القبائل
العربية كانت تجرى في دماء أبنائها الخصال العربية
الحميدة كالجود والكرم والتضحية والشهامة والفداء
فقد وردت كثير من المواقف والبطولات التاريخية في كثير
من كتب التاريخ تعبر عن هذه المعاني تعبيراً صادقاً أكيداً
فيقول المقرئ مثلاً (أن الرجل كان في أيام الناصر
محمد بن قلاوون وما بعدها يمر من القاهرة إلى أسوان
فلا يحتاج إلى نفقة بل يجد في كل بلد وناحية دور
الضيافة فإذا دخل داراً منها أحضر لدابته علفها وجرى له

(١) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي حوادث سنة ٦٩٨ .

بما يليق به من الأكل ونومه (١) فلقد كانت دور الضيافة
التي تدل على الكرم والجود منتشرة في كل ركن من
أركان الصعيد يجد فيها المسافر والوافد واللاجئ زاده
وأمنه وراحته ، وهذه في الواقع طباع وصفات عربية
أصيلة تجرى في دماء أهل الصعيد ، وما زالت تمتد حتى
يومنا هذا) .

(١) القريزي : الخطط ج ٢ ص ٣٧ .

الفصل الثاني

قوص

- الموقع الجغرافي : تسميتها بهذا الاسم -
لماذا اختيرت عاصمة الصعيد - وصفها كما
جاء على لسان ابنائها من شعراء وعلماء
ومؤرخين .

- قوص من خلال كتابات المؤرخين والجغرافيين
والرحالة العرب خلال هذه الفترة .

الموقع الجغرافي - تسميتها بهذا الاسم - لماذا
اختيرت عاصمة الصعيد - وصفها كما جاء على لسان
ابنائها من شعراء وعلماء ومؤرخين .

تقع مدينة قوص على الساحل الشرقي من النيل
في مسافة قدرها ٦٤٥ كم جنوب القاهرة ، وهي الآن من
المراكز الهامة في محافظة قنا ، وقد ضبط اللورخون الذين
تحدثوا عنها اسمها بضم القاف ثم السكون وصاد مهمة
والنسبة اليها قوصي (١) وقد اختلف في سبب تسميتها
بهذه التسمية فمن قائل انها سميت باسم رجل يقال
له قوص بن قفط بن اخميم بن سيقاف بن اشمن بن
منف (٢) ومن قائل انها سميت باسم قوص بن سيقاف بن
اشمن بن مصر (٣) والقول الراجح هو أن قوص كلمة قبطية
بمعنى الكفن أو الدفن وقد سميت كذلك لأن أهلها كانوا
مهرة في دفن الموتى وتكفينهم (٤) .

- (١) السمعاني : الانساب ص ٤٧٠
- (٢) الادفوى : الطالع السعيد ص ١٣ - ١٤
- (٣) ابن دماق : الانتصار بواسطة عقيل الانصار ص ٢٩
- (٤) أبو صالح الارمني : ص ١٠٢ - ١٠٣

وقوص هذه مدينة قديمة كان بها منذ عهد البطلمة
معبد بطلمي مشهور ببناء بها ثاني حكامهم ، وقد ذكر بعض
المؤرخين كثيرا من القصص حول بناء هذه المدينة
وتأسيسها ، منها أن شدات بن عديم سادس ملوك الطوفان
بناها لابن له كان قد سخط عليه وعلى أمه فأقطعها لهما
وأسكن عندهما قوما من أهل الحكمة وأهل الصناعة (١) .

وقد بدأت قوص الاسلامية في العمارة سنة ٤٠٠ هـ
- ١٠٠٩ م بعد أن خربت فقط التي كانت عاصمة للصعيد
في عصور الاسلام الاولى (٢) وأخذت في التقدم والازدهار
حتى أنها اختيرت عاصمة للصعيد في عهد الأيوبيين وذلك
بحكم توسط موقعها الجغرافي بين بلاد المشرق والمغرب
فهي كما يقول أكثر المؤرخين باب مكة واليمن وسواكن
والباله (٣) أي أنها بذلك أصبحت مركزا من المراكز
الهامة التي كانت تربط مصر من الجنوب بهذه المدن
وسواها في آسيا وشرقي افريقيا .

وقد ساعدها موقعها الجغرافي هذا أن تصبح طريقا
للحج يمتاز بالهدوء والأمن والأطمئنان في الوقت الذي
فيه كانت تدور معارك الحروب الصليبية في المنصورة
والاسكندرية ودمياط ورشيد نضيف الى كل ذلك أنها

(١) ابن دقماق : الانتصار ج ٥ ص ٢٩ .

(٢) الأدلوي : الطالع السعيد ص ١٤ .

(٣) المصدر السابق ص ١٤ .

قد اتخذت في عصر الايوبيين والمماليك قاعدة لنشر مذهب السنة والقضاء على مذهب الشيعة الذي بدأ يتغلغل في أغلب مدن الصعيد . كل هذه العوامل مجتمعة كانت سببا في اختيار قوص عاصمة للصعيد منذ عهد الدولة الفاطمية حتى أواخر حكم المماليك وكانت سببا أيضا في أن يرتبط بها الكثير من أهل العلم والتجار وأرباب المعاشات ، وقد جرى ذكرها وذكر محاسنها على لسان من ارتبطت حياتهم الأولى بها من شعراء وعلماء وأدباء ، فقد ذكرها في كثير من شعره البهاء زهير الشاعر المعروف الذي عاش صدر حياته بها وكان يعمل في خدمة السلطان مجاهد الدين ابن اللطفي أحد أمراء قوص في زمنه ، وكذلك أحمد بن ناشي القوصي وتاج الدين الدشناوي والادفوي الذي قال فيها :

أنزل بقوص فانما

هي منزل الفطن الحكيم

واشرب مياها قد آتت

من طيب جنات النعيم

رقت وراقت فاحسها

ياصاح في الليل البهيم

وانشوق شذا عرف الريا

ض يفوح مع لطف النسيم

وانظر الى جرى الجدا
ول في المفارط (١) والكرم
حكمت الجنان بما حوت
حسا وبالوجه الوسيم
ما العيش الا ما مضى
لي في رباها من قديم (٢)

فالادفوى من خلال قصيدته هذه أعطانا صورة عن
مدينة قوص في زمنه أى في عصر المماليك وهي أنها كانت
منزل الفضلاء والحكماء وأن ماءها عذب فرات قد أتى على
حد تصويره من جنات النعيم وانها عبقّت الارحاء بشذى
عطر رياحينها وأن جداول الماء تجرى في بساطينها
وكرومها فأكسبها كل ذلك جمالا وبهاء وحسنا ، ونضيف الى
هذه الصورة أيضا ما جاء على لسان العالم الفقيه مجد
الدين القشيري حينما نصّح أحد طلبة العلم بالسفر الى
قوص للدراسة في مدارسها وقد تذرّع هذا الطالب بجوها
وحرارتها فقال له أين أنت من طيب فاكهتها وعطرية
رياحينها (٣) .

-
- (١) المفارط : الحقائق والبساتين .
(٢) الادفوى : الطالع السعيد ص ١٥
(٣) الادفوى : الطالع السعيد ص ٢٧ .

كل هذه المحاسن والصفات التي كانت عليها قوص
 في ذلك الوقت قد رغبت وحببت الكثير من الامراء
 والسلاطين أن يقدوا اليها في فراغهم ليقضوا بها وقتا
 طيبا ، فالسلطان قلاوون كان يتحين الفرص للسفر الى
 قوص هو وبعض من أفراد حاشيته للسياسة والاستجمام
 وصيد الغزلان التي كانت تكثر بصحرائها الشرقية (١) .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حوادث ٧١٠ هـ

قوص من خلال كتابات المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب في العصر الاسلامي

لقد ورد الحديث عن قوص في كثير من كتب
المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب خلال هذه الفترة
وسوف نستعرض ما قاله هؤلاء عنها منذ عصر الدولة
الفاطمية حتى أواخر حكم المماليك .

ففي عصر الدولة الفاطمية ٢٩٧ هـ - ٥٥٥ هـ
(٩٠٩ م - ١١٦٠ م)

مر بها الرحالة الفارسي ناصر خسرو المتوفى ٤٨١ هـ
١٠٨٨ م وهو في طريقه الى أسوان جنوبا ومنها الى بلاد
المشرق فكتب عنها في رحلته المعروفة بسفرنامه (١) :
يقول : (ومن هناك بلغنا مدينة تسمى قوص رأيت فيها
أبنية عظيمة من الحجارة تبعث على العجب وهي مدينة
قديمة محاطة بسور من الحجر وأكثر أبنيتها من الحجارة

(١) سفرنامه : كلمة فارسية بمعنى كتاب الرحلة .

الكبيرة التي يزن الواحد منها عشرين أو ثلاثين ألف «من» (١)
والعجيب أنه ليس على مسافة عشرة أو خمسة عشر
قرسنا منها جبل أو محجر فمن أين وكيف نقلوا هذه
الحجارة (٢) .

ثم يأتي من بعده الجغرافي العربي المعروف الشريف
الإدريسي المتوفى ٥٦٠ هـ ١١٦٤ م يتحدث عن هذه المدينة
في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق قائلا : (قوص
بالجبهة الشرقية من النيل وهي مدينة كبيرة بها منبر
وأسواق جامعة وتجارات رابحة والبركات ظاهرة وشرب
أهلها من ماء النيل وبها بطون طيبة وضروب من الحبوب
كثيرة ممكنة ولحوم تدفة (٣) حسنة المنظر لذينة المأكـ
ل لكثرة نعمها كان هواؤها وبائيا وأهلها مصفرة ألوانهم
وقليل ما دخلها غريب وسلم من المرض الا نادرا (٤)) .
وفي عصر الدولة الأيوبية ٥٦٧ هـ - ٦٤٨ هـ
١١٧١ م - ١٢٥٠ م زارها الرحالة المغربي بن جبير
المتوفى ٦١٣ هـ ١٢١٦ م .

(١) من : مقياس ، الوزن = رطلين .

(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ، نقله من الفارسية الى العربية
الدكتور يحيى الخشاب ص ٧١

(٣) تدفة : أى كثيرة الدهن .

(٤) الإدريسي : نزهة المشتاق ص ٤٩ .

ووصفها في رحلته وصفا دقيقا فنراه يقول (وهذه
المدينة حافلة الاسواق متسقة المرافق كثيرة الخلق لكثرة
الصالار والوارد من الحجاج والتجار اليمن والهنديين وتجاد
الحبشة لانها محط للرجال ومجمع الرفاق وملتقى الحجاج
المغاربة والمصريين والاسكندرنيين ومن يتصل بهم
وفوزون بصحراء عذاب واليها انقلاهم في صدرها الى
الحج (١)) وفي معجم البلدان لياقوت الرومي المتوفى
٦٢٦ هـ ١٢٣٣ م أن قوص بالضم ثم السكون وصاد مهملة
وهي قبضية أى أن قوص كلمة قبضية : مدينة كبيرة عظيمة
واسعة ، وهي قصبة صعيد مصر بينها وبين القسقاط اثنا عشر
يوما ، وأهلها أرباب ثروة واسعة وهي محط التجار القادمين
من عدن واكثرهم من هذه المدينة وهي شديدة الحر لقربها
من البلاد الجنوبية ، وبينها وبين فقط فرسخ (٢) وهي
شرقي النيل بينها وبين بحر اليمن خمسة أيام أو أربعة (٣) .

وفي عصر سلاطين المماليك ٦٤٨ هـ - ٩٢٣ هـ
١٢٥٠ م - ١٥١٧ م اتسع الحديث عن هذه المدينة عند
كثير من مؤرخي هذا العصر فمن هؤلاء أبى الفدا ٧٣٢ هـ
١٣٣١ م الذى يقول عن هذه المدينة فى تقويم بلدانه
(٠٠) قوص مدينة بالصعيد وليس بأرض مصر بعد القسقاط

(١) ابن جبير : الرحلة ، تحقيق الدكتور حسين نصار
ص ٣٦ - ٣٧ .
(٢) ياقوت الرومي : معجم البلدان ، مادة قوص .

مدينة أعظم منها وهي قرضة (١) التجار من عدن ، وهي على حافة النيل من البر الشرقي وفرضت قوص قصير بضم القاف وفتح الصاد المهملة ثم ياء آخر الحروف وراء مهملة ، والقصير ميناء على بحر القلزم وهي على ثلاثة أيام من قوص في مغازه (١) ولم يضاف صفى الدين عبد المؤمن عبد الحق في كتابه مرصد الاطلاع شيئا جديدا سوى انه ضبط اسمها وحدد المسافة بينها وبين القسطاط وقال (قوص بالضم ثم السكون وصاد مهملة مدينة كبيرة عظيمة واسعة وهي قصبة صعيد مصر بينها وبين القسطاط اثنا عشر يوما وبينها وبين قفط فرسخ (٣) .

ثم يأتى الأدفوى صاحب الطالع السعيد الذى تحدث عن هذه المدينة حديثا مستفيضاً فى أكثر من موضع فوصفها وتغنى بها وتحدث عن مدارسها وفقهاها وعلمائها وأهل الرأى فيها ويشترك معه فى الحديث عنها معاصره هو ابن فضل الله العبرى المتوفى ٧٤٩ هـ ١٣٨٠ م فى كتابه مسالك الأمصار فى ممالك الأمصار الذى يقول فيه (ان قوص أكبر مدينة بالصعيد وفيها تنزل القوافل الواردة من بحر الهند والحبس واليمن والحجاز بعد مرورها بصحراء عيذاب وفيها كثير من الفنادق والبيوت

(١) قرصة : طريق منحدر من وسطه وجانبه

(٢) أبو الفدا : تقويم البلدان ص ١١٠ - ١١١ .

(٣) صفى الدين بن عبد الحق : مرصد الاطلاع ج ٢ ص ٤٢١ .

الفاخرة والحمامات والمدارس والبساتين والحدائق
ومزارع الخضروات ، ويسكنها سائر أرباب الصنائع
والفنون والتجار والعلماء والأغنياء وذوو العقارات
والأملاك ، وهوؤها في غاية الحرارة (١) .

وفي النصف الثاني من القرن الهجري زارها الرحال
المغربى ابن بطوطة المتوفى ٧٧٩ هـ ١٣٧٧ م فوصفها قائلاً
(قوص بضم القاف مدينة عظيمة لها خيرات عسيما
بساتينها مورقة وأسواقها مولقة ولها المساجد الكثيرة
 والمدارس الأثيرة (٢) وهي منزل ولاية الصعيد وبخارجها
زاوية الشيخ شهاب الدين عبد الغفار وزاوية الأفرم وبها
اجتماع الفقراء المتجردين (٣) فى شهر رمضان من كل
سنة ، ومن علمائها القاضى جمال الدين السديد والخطيب
بها فتح الدين بن دقيق العيد أحد العلماء والبلغاء الذين
حصل لهم سبق فى ذلك لم أر من عائلته الا خطيب
المسجد الحرام بهاء الدين الطبرى وخطيب مدينة خوارزم
حسام الدين الشاطبى (٤) .

وقد تحدث عن هذه المدينة أيضا المؤرخ المصرى
المعروف بابن دقماق المتوفى ٨٠٩ هـ ١٤٠٦ م فى كتابه

(١) نقلا عن على باشا مبارك : الخطط ج ١٤ ص ١٣٨ .

(٢) الأثيرة : المحبوبة .

(٣) المتجردون : الصوفية .

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ج ١ ص ٢٩ .

الانتصار بواسطة عقد الامصار قائلا : (٠٠٠ أن هذه المدينة قديمة تعرف بقوص انعالية بنيت في زمن شيدات ابن عديم وهو السادس من ملوك مصر بعد الطوفان بناها لابن له كان قد سخط عليه وعلى أمه فبنى لهما هذه المدينة وحولهما اليها وأسكن عندهما قوما من أهل الحكمة وأهل الصناعات ، وهى على ضفة النيل الشرقى وهى الآن مدينة الاقليم بعد أن كانت مدينة الاقليم قد خرجت في سنة ٤٠٠ هـ ١٠٠٩ م وبها الآن متولى الحرب السعيد وقاضى القضاة وقيل انها سميت بقوص بن شنفاق بن أشمن بن مصر وهى باب مكة واليمن والنوبة وسواكن والتاكة (١) وبهذه المدينة ستة عشر مكانا للدروس (٢) .

المدينة القديمة

وفى حديث شهاب الدين القلقشندى المتوفى ٨٢٣ هـ ١٤٢٠ م فى كتابه صبح الأعشى فى صناعة الانشا ما نصبه (قوص يضم القاف وسكون الواو وهى مدينة جليلة على البر الشرقى من النيل ذات ديار فائقة ورباع أنيقة ومدارس وربط وحمامات يسكنها العلماء والتجار وذوو الأموال ولها البساتين والحدائق المستحسنة الا أنها شديدة الحر كثيرة العقارب حتى أنه يقبض لها من يدور فى الليل فى شوارعها بالمسارج لقتلها ، ويقاربها فى الكثرة

(١) التاكة : اختلف فى تسميتها فمنهم من يقول البالة

(٢) ابن ديمق : واسطة عقد الانتصار ج ٤ من ٢٩ .

سام أبرص ، قال المقر الشهابي بن فضل الله العمري في
مسالك الأمصار : أخبرني عز الدين حسن بن أبي المجد
الصفطي أنه عد في يوم صائف على حائط الجامع بها سبعين
سام أبرص (١) على صف واحد (٢) . ويقول عنها أيضا
المقريري المتوفى ٨٤٥ هـ ١٤٤١ م في خطه (اعلم أن
قوص أعظم مدن الصعيد وهي على النيل بنيت بعد قفط في
أيام ملك القطر الأول ٠٠٠ وقوص كثيرة العقارب وبها
صنف من العقارب القتلات حتى أنه كان يقال بها أكلة
العقارب ، لأنه كان لا يرجى لمن لسعته حياة واجتمع بها مرة
في يوم صائف على حائط الجامع سبعون سام أبرص صفا
واحدا ، وكان الواحد من أهلها إذا مشى في الصيف ليلا
خارج داره يأخذ بيده مسرعة تضيء له وبالأخرى
مشك من حديد يشك به العقارب ، ثم أنها
تلاشت بعد سنة ثمانمائة ، ولما كانت الحوادث
والمحن مات بها سبعة عشر ألف انسان في سنة
ست وسبعماية وكانت من العمارة بحيث أنه تعطل فيها
في سراقى البلاد سنة ست وسبعين وسبعماية

- (١) سام أبرص بتشديد الميم ، قال أهل اللغة وهو من كبار
الوزج . وقد سمي بذلك لأنه سم أي جعل الله فيه السم ومن شأن هذا
الحيوان أنه إذا تمكن من الملح تمرغ فيه فيصير مادة لتولد البرص ،
راجع الجزء الثاني من كتاب حياة الحيوان الكبرى للزعمري ص
١٣ - ١٤ ، بتصرف .
(٢) القلقشنقى : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج ٢ ص ٤٠١

وخمسون مغلقا ، والمغلق عندهم بستان من عشرين فدانا
فصاعدا وله ساقية بأربعة وجوه (١) . وقد أثبت ابن
الجبعان في التحفة السنية أن مدينة قوص ليس لها طين
أى أنه ليس لها أراض زراعية (٢) .

من كل ما جاء على لسان هؤلاء المؤرخين والجغرافيين
والرحالة العرب فى وصف مدينة قوص يتضح لنا أن هذه
المدينة أخذت فى العمران والتقدم منذ عصر الدولة الفاطمية
ثم بلغت قمة مجدها وشهرتها حتى أنها عدت من أعظم مدن
الصعيد فى عصر المماليك ، وذلك واضح ملموس فى
وصف مؤرخى هذا العصر لها وسوف نتتبع هذه المدينة
منذ عصر الدولة الفاطمية حتى عصر سلاطين المماليك .

ففى عصر الفاطميين زارها الرحالة ناصر خسرو
وكانت حديثة النشأة والتكوين فقد ورثت فقط بعد
خرابها سنة ٤٠٠ هـ ١٠٠٩ م كما أشار الى ذلك أغلب
المؤرخين وقد كانت من أهم معالمها آنذاك معبد بطلمي أقامه
أحد حكام البطالمة يتكون من سور عظيم ومبان حجرية
ضخمة أثارت فى نفس الرحالة الفارسى ناصر خسرو
الدهشة والعجب فاندفع مبهورا ، يقدر وزن الحجر منها
بعشرين أو ثلاثين ألف أى ما يقرب من ثمانين

(١) المقريزى : الخطط ج ١٢ ص ٣١١ .

(٢) ابن الجيعان : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية
ص ١٩٠ .

ألف رطل أو ثمانمائة قنطار ثم تأخذ هذه المدينة في النمو والانتساع والتقدم شيئاً فشيئاً فجددت عمارة جامعها العامرى الذى أسس فى أوائل الفتح العربى وأنشئ به منبر فريد على الطراز الفاطمى الذى شاهده الشريف الادريسى ، ثم كثرت بها الأسواق وراجت تجارتها وامتدت بها أسباب النعيم ورغد العيش الذى تمثل فى كثرة خيراتها من حبوب وبقول ولحوم سدفة أى كثيرة الدهن حسنة المنظر لذيدة الطعم ، مما يدل على أن قوص كانت بها مراعى شاسعة للأغنام والماشية أعطت نتاجاً حسناً فى العصر الفاطمى .

وفى عصر الدولة الأيوبية بعد أن سيطر الصليبيون على الشمال اكتسبت قوص على أثر ذلك مكانة مرموقة فقد تحول الطريق إليها من المشرق الى المغرب بحكم موقعها الجغرافى ، وأصبحت بذلك محط التجار وملتقى الرجال . فكثرت الداخل فيها والخارج منها من تجار وحجاج يحملون جنسيات مختلفة من اليمن وعدن والحبشة وبلاد المغرب فترتب على ذلك أن نشطت قوص نشاطاً ملحوظاً فى تواحى الحياة الاقتصادية ، كما أشار الى ذلك مؤرخو هذا العصر .

وفى عصر سلاطين المماليك الذين امتد حكمهم لمصر أكثر من قرنين ونصف بلغت هدم المدينة قمة مجدها وشهرتها فى شتى نواحي الحياة ، فقد ازدهرت فيها الناحية الثقافية بصفة خاصة حيث أنشئت بها ست عشرة

مدرسة استقبلت وفودا من طلبة العلم والمعرفة من مختلف
الجنسيات كما توافد عليها العلماء والخطباء ورجال
الصوفية من المشرق والمغرب ، ومر بها أيضا الحجاج
السكنديون والمغاربة في رواهم وغدوهم من الأراضي
الحجازية ، واتخذت أسواقها بمختلف البضائع وتمرس
أهلها التجارة وخبروا فن المعاملات فأثروا على أثر ذلك
ثراء فاحشا مما ترتب عليه أن تغير طابع المدينة ومظهرها
الخارجي ، فأنشئت بها الحصون المنيعة والفنادق والخانات
والحمامات وأحواض السبل بجانب الربط والزوايا
والمساجد العامة ، وكانت تحيط بكل هذه المنشآت والبناني
في الأغلب الأعم البساتين التي كانوا يطلقون عليها في ذلك
الوقت المغاليق وقد كان كل بستان مساحته من عشرين
فدانا فصاعدا وعليه ساقية تمتد بالماء بأربعة وجوه .
ولا شك أن هذه البساتين قد أكسبت قوص حسنا وجمالا
كما أنها أغدقت على أهلها الخيرات والأرزاق بقطوفها
الدانية .

ولا ينبغي أن يفوتنا أن قوص كانت في عصر سلاطين
المماليك بسطة خاصة تتمتع بمكانة عظيمة في الناحية
الحربية فقد أنشئت بها سكنات عسكرية تضم آلافا من
الجنود من أبناء إقليم قوص بجانب المماليك السلطانية الذين
كانوا ينسركزون في قوص العاصمة ، وكان يشرف على هذه
الأعمال الحربية وتجهيز الجنود للغزو حسب أوامر السلطان

متولى الحرب السعيد الذى يشبه فى عصرنا العتالي القائد العام ويتخذ من قوص مركزا له كما يقول ابن دقماق .

وقد ازدادت أهميتها بصفة خاصة فى عهد السلطان قلاوون الذى جعل منها قلعة حربية بحكم موقعها الجغرافى بين بلاد المشرق والمغرب تنطلق منها الجنود لاختضاع الثوار فى بلاد النوبة أو الغزو بلاد اليمن، ففي سنة ٦٨٦ هـ ١٢٨٧ م انطلقت الجيوش من قوص لكبح جماح ملك النوبة (سمانون) الذى تمرد على السلطان قلاوون ، فسار الجيش من قوص وعلى رأسه المماليك السلطانية المتمركزين بالأعمال القوصية واجنساد مركز قوص وعربان الاقليم وهم أولاد أبى بكر وأولاد عمرو وأولاد شريف وأولاد شسيبان وأولاد الكنز وبني هلال وغيرهم وكان أن انهزم ملك النوبة سمانون وقتل الكثير ممن معه (١) .

كما أنه فى سنة ٦٩٢ هـ ١٢٩٢ م اتجه السلطان قلاوون شخصيا الى مدينة قوص ونادى منها بالتجهيز لغزو اليمن (٢) .

بالاضافة الى كل ذلك فان مدينة قوص قد ساهمت مساهمة فعالة فى بناء الاسطول المصرى فقدمت فى ذلك الصناع

(١) المقرئى : السلوك فى معرفة دول الملوك ج ١ قسم ٣

من ٧٣٧ .

(٢) المصدر السابق : حوادث ٦٨٦ الى ٦٩٢ .

والفنيين المهرة فى بناء السفن بجانب خشب السنط الذى كان يكثر بها والذى يعتبر دعامة قوية فى صناعة الاسطول (١) .

كما أن هذه المدينة كانت منفى لارباب الجرائم والمشاعبين والمناوئين للحكام فى مصر وقد ظهرت ميزة قوص كمنفى لهؤلاء فى عصر سلاطين المماليك بصفة خاصة ، فقد نفى اليها كثير من خلفاء العباسيين والأمراء ، فقد نفى السلطان الناصر لدين الله قلاوون فى سنة ٧٣٧ هـ ١٣٣٦ م الخليفة العباسى المستكفى بالله أبو الربيع سليمان بنه وأولاده وكانوا قريبا من مائة نفس وظل بها هذا الخليفة الى أن توفى سنة ٧٤٠ هـ ١٣٣٩ م ودفن بها كما نفى اليها أيضا المنصور أبى بكر ابن السلطان قلاوون الذى تولى الحكم سنة ٧٤١ هـ ١٣٤٠ م وخلع فى العشر الأخير من شهر صفر سنة ٧٤٢ هـ ١٣٤١ م لفساده وشربه الخمر حتى قيل انه أتى زوجات أبيه وهتك حرم أبيه الناصر قلاوون وكثر البكاء والعويل بالقاهرة ، ثم قتل بقوص ، كان ذلك مجازاة لما فعله والده السلطان قلاوون بالخليفة المستكفى بالله (٢) .

لكنه بالرغم من كل هذه الخيرات والطيبات والمحاسن والمميزات التى كانت تتمتع بها قوص خلال هذه

(١) المقرئى : الخط ج ٢ ص ١١٠ .

(٢) على باشا مبارك : الخط ج ١٤ ص ٩٣٠ .

الفترة التي نؤرخ لها الا أنها قد تعرضت لألوان شتى من المحن والشدائد والجاعات التي اجتاحت البلاد ففي سنة ٦٧٦ هـ ٣٧٧ وسنة ٧٠٦ هـ ١٣٠٦ م بسبب تقاصر النيل أصاب الناس لباس الخوف والجوع ونقص في الأنفس والثمرات . بجانب أن فساد هوائها وشدة حرارتها في فصل الصيف كان من العوامل التي ساعدت على تفشي الأوبئة بها واصابة أهلها بكثير من الأمراض كاصفرار ألوانهم وبدانة أجسامهم ، حتى أنك تستطيع أن تميز القوصي من غيره بوجهه المصفر وبدانة جسمه ، ونادرا ما دخلها غريب وسلم من أمراضها وذلك ما قاله الشريف الإدريسي .

وقد كان من مساوئ فصل الصيف بها أيضا كثرة العقارب والهوام ، فمما هو جدير بالملاحظة في وصف أغلب مؤرخي عصر المماليك أنهم قد أجمعوا فيما كتبوا عنها أنها كثيرة العقارب والهوام فقد عد في يوم صائف بها على حائط الجامع سبعون سام أبرص وهو نوع من الهوام القاتلة التي تعرف عند العامة في قوص (بالوزغ) فقد كان الشخص اذا خرج من بيته ليلا في فصل الصيف يضطرب معه مسرجا أي مصباحا ومشكا من حديد يشك به العقارب التي تقع في طريقه ، وقد كان بقوص في ذلك الوقت قوم لهم معرفة ودراية تامة بصيد هذه الهوام وتخليص الناس منها ، وذلك بواسطة عزائم وأقسام مجردة يقرأونها عليها فتقف فوق مكانها لا تبدى حراكا

وتكف عن الأذى أو كانوا يقرأون عليها هذه العزائم
ويسلطونها على من شاءوا ومتى شاءوا فقتلهم بكل جهدها
ولا ترجع عنهم الا اذا أمرت بالرجوع .

وقد حدث أن أحد ولاية قوص في عهد الناصر تلاوون
أوقف ذات مرة امرأة لها خبرة واسعة في مثل هذه الأمور
وكانوا يطلقون عليها الساحرة أو الحاوية وأمرها أن تريه
شيئا من عجيب صنيعها فأخبرته أن سرها الأكبر هو أن
تسحر العقارب وتحركها كما شاءت فاذا ذكرت لها شخصا
مشيت إليه ولا تتعداه فتلدغه وتهلكه ، فقال لها أرني ذلك
وجري في فأتت بعقرب وتلت عزائمها عليها ثم أطلقتها
فانطلقت وراءه وهو يهرب منها بجهات شتى حتى كادت
تلدغه فهرب منها وجلس على كرسى وسبط حوض مملوء
بالماء فوقفت على حافته تراود نفسها في خوضه ثم جرت
على الحائط ومشيت على السقف حتى صارت موازية لرأسه
ثم رمت بنفسها فسقطت بالقرب منه وقصده فبادرها
بضربة فقصت عليها في الحال ، ثم أمر بقتل هذه المرأة
فورا وتخليص الناس من شرها (١) .

(١) على باشا مبارك : الخطط ج ١٤ ص ١٣٢ .

الفصل الثالث

بناء المجتمع القومى فى العصر الاسلامى

الطبقات

طبقة الولاة والحكام - القضاة - العلماء
والفقهاء - التجار - الصناع والحرفيون -
الفلاحون وعامة الشعب - النصارى - الاقليات
الاجنبية - المرأة ومدى نشاطها •



بناء المجتمع القوصى فى العصر الاسلامى

كان مجتمع قوص فى العصر الاسلامى يعتبر من أهم المجتمعات بالنسبة لساثر مجتمعات مدن الصعيد ، وذلك لأن مدينة قوص - كما سبق أن قلنا - كانت العاصمة ومقر الولاية والأمراء والحكام وبناء على ذلك فقد تمثلت فى بناء مجتمع هذه المدينة عدة طبقات وهى : طبقة الولاية والحكام - القضاة - العلماء والفقهاء - التجار - الصناع والحرفيون - الفلاحون وعامة الشعب - النصارى - الاقليات الأجنبية - المرأة ومدى نشاطها فى هذا المجتمع .

طبقة الولاية والحكام :

وهم الذين فى أيديهم زمام السلطة الادارية فى هذا الاقليم وكانوا يلقبون بألقاب كثيرة منها : الأمير أو الوالى أو متولى الحكم ، ويعينون من قبل سلطان مصر بموسوم يسمى المرسوم السلطانى .

وكان والى قوص يعتبر من أهم ولاية الديار المصرية وذلك لمكانة هذا الاقليم وأهميته ، فقد كان يتمتع

حاكم هذا الاقليم بامتيازات قل أن يتمتع بها سواه من أمراء وحكام الأقاليم الأخرى ، منها أنه كانت تكتابه ثلاثة ملوك (١) وأنه كان فى تحركاته الرسمية يركب بالشهباء السلطانية أى الموسيقى السلطانية (٢) .

وكان نظام اللامركزية هو النظام المعمول به فى الديار المصرية فى زمن الايوبيين والمماليك ، أى أن أمير أو والى الاقليم له مطلق التصرف فى شئون اقليمه من حيث التنظيم واختيار الموظفين الاداريين الذين يتولون معاونته فى شئون ادارة اقليمه ، وهم الذين كان يطلق عليهم فى ذلك الوقت أرباب الوظائف الديوانية ، ويشترط فيهم الصدق والأمانة والنزاهة والعفة بجانب الدراية الواسعة بالعلم والفقه ، فمن هؤلاء من كان يتولى جباية الخراج والتفتيش على الأسواق ومراقبة الموازين والمكاييل وضبط التجار المختلسين والغشاشين . ثم يأتى بعد ذلك دور أرباب الأقلام وهم فئة معينة تتولى الرد على الرسائل السلطانية والمكاتبات الرسمية لابد أن تتوافر فيهم الدراية التامة بفنون الأدب حتى يتسنى لهم تدوين الرسائل بأسلوب جزل اللفظ قوى التعبير .

ولما كانت قوص مركزا من أهم مراكز البريد فى الديار المصرية يصلها البريد من قلعة الجبل المحروسة ثم

(١) ابن دقماق ج ٥ ص ٢٩ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٦ .

يوزع منها الى جهة أسوان وبلاد النوبة وجهة عيذاب
وسواكن (١) استوجب ذلك أن يكون بهنا ناظر للبريد
يتولى الاشراف على تنظيم هذه العملية ويعاونه في ذلك
البريديون ، وهؤلاء يخضعون لاشراف والى قوص كما أنه
كانت هناك ادارة أمن قوية تتكون من العسس أو
الشرطة وتتولى المحافظة على أرواح الناس وأموالهم وتقوم
بالقبض على الفارين والهاربين والمجرمين ، ولوالى قوص
مماثلون له في مدن اقليمه يتولى تعيينهم وعزلهم يطلق
عليهم أمين الحكم أو متولى الحكم . ويقيم الوالى في مقر
ولايته أى قوص ويتعين عليه أن يتجول في مختلف مدن
الاقليم حتى يشرف بنفسه على حسن سير الأمور ويراقب
الموظفين ويحاسبهم على أعمالهم فليكا في من يستحق
المكافأة وبوقع الجزاء على المهمل المتقاعس ، وقد كان لكثرة
خيرات هذا الاقليم وأهميته أثر كبير في أن يتكالب على
تولية امارته الكثير من الولاة والأمراء ويفخرون بذلك على
سائر ولاة الأقاليم . ومن أشهر هؤلاء الأمراء والولاة
الذين تولوا اماره هذا الاقليم ابن الرفعة ، وابن هبة الله
النقيب وعلاء الدين الخازندار والأمير مجد الدين بن اللمطى
وشاور السعدى وسيف الدين سالار وغيرهم كثيرون قد
أشار اليهم الادفوى في الطالع السعيد في تراجم مختلفة .

(١) القلشندي : صبح الاعشى ج ١٤ ص ٢٧١ .

فمن هؤلاء الولاة من كان يرى الله في أفعاله فلا يظلم
الناس شيئا بل يصنع الخير ويهب العطايا وينفق في
وجوه البر والاحسان الشيء الكثير ، حتى أنهم قد تركوا
بأفعالهم الحسنة هذه انطباعات قوية على وجه مجتمع قوص
تجلت في انشائهم للمساجد والمدارس والربط والزوايا
التي خلدت أسماءهم من بعدهم .

ومن هؤلاء أيضا من كان ظالما قاسيا غليظ القلب
لا يراعى الا ولا ذمة ولا هم له الا جمع الأموال
وانفاقها في وجوه غير مشروعة والسلب والنهب وقطع
أرزاق الناس . الا أن أهل قوص كانوا يملكون من
الشجاعة والقوة ما يؤهلهم لأن يقفوا في وجه الوالي
الملتعسف الظالم فيخبرون السلطان بأفعاله وأحواله
ويرجونه عزله فيعزله أو يثورون في وجهه ينكلون به ، فقد
ورد أن أحد الأمراء في القرن السادس الهجري ولي قوص
وجار على أهلها وأذاقهم العذاب ألوانا فكان أن ثاروا في
وجهه وقتلوه ونكلوا به فربطوا كلبا ميتا في رجله
وسحبوه حتى القوه على مزبلة (١) .

القضاة :

هم من أهم الطبقات وأكثرها جلالا واحتراما يخضعون
مباشرة لقاضي القضاة بالقاهرة وهو الذي يتولى تعيينهم

(١) على باشا مبارك : الخطط ج ١٤ ص ١٣٩ .

أو عزلهم وهم بدورهم لهم السلطة في تعيينهم ممثلين لهم في مدن اقليمهم ، وقد كانوا يمثلون المذاهب الأربعة : الشافعي ومالك وأبو حنيفة وابن حنبل الا أن هذا المذهب الأخير قليل الخطر ويتخذ قاضي القضاة لاقليم قوص مقر عمله العاصمة قوص . ولقاضي القضاة جهاز ادارى يتولى معاونته وهم : **الموقعون والشهود العدول** الذين يلعبون دورا هاما في تبصير القاضى بأمور قد تكون خافية عليه وذلك بحكم المامهم بأحوال مجتمعهم الذى يعيشون فيه وشهادتهم نافذة وقولهم فصل ، ولكل بلد شهودها ويتخذون من سوق الوراقين بقوص مكانا يجلسون به يسمى حوائيت الشهود وهو ما يشبه المكاتب فى مفهومنا العصرى (١) .

الحجاب :

وهم الذين يتولون عرض الشكاوى والمظالم وادخال الناس فى نظام الى القضاة ويعاونهم فى ذلك العسس وهم حفظة الامن الذين يتولون تنفيذ حكم القاضى والقبض على الفارين وايداعهم السجن كما أن هناك دواوين وادارات تخضع مباشرة لسلطة القاضى وهذه الدواوين والادارات تعتبر من أهم الدواوين والادارات حساسية فى الدولة حيث تتولى الاشراف على أموال الدولة وأرزاق الناس ومعاشهم ، ومن هذه الدواوين : **وكالة بيت المال** التى تنولى شئون المبيعات والمشتريات من أرض أو عقار . **ديوان الاحباس** والذى يشبه الأوقاف فى عصرنا الحاضر

(١) الادفوى : الطالع السعيد فى تواجم متفرقة .

وصاحبها يتحدث في رزق الجوامع والمساجد والربط
والزوايا والمدارس والانفاق عليها • متولى الضرب وهو الذي
يتولى ويرعى شئون دار ضرب النقود ويحافظ على ما بها
من دنائير ودراهم وفلوس قضية كانت أو ذهباً ، ويخطر
قاضي القضاة بسير العمل فيها وحسن أدائه وسلامة
مقتنياتها • وقد كانت بقوص دار لضرب النقود لا تقل عظمة
عن دار القاهرة والاسكندرية (١) •

وبالإضافة الى هذه الدواوين التي كان يتولى قاضي
قضاة قوص الاشراف عليها ومراقبة حسن سير العمل بها
نرى ضمن اشرافه أيضا رئيس المؤذنين الذي يتولى تحديد
مواقيت الأذان واثبات رؤية هلال كل شهر عربي ويقسم
أمام قاضي القضاة بمشاهدته لهلال شهر الصوم المبارك
وعليه أيضا أن يحدد أيام اللواسم والأعياد الدينية وقد كان
لوظيفة رئيس المؤذنين هذه كيانها في عصر الايوبيين
والمماليك فكان لا يليها الا من كانت له دراية تامة بعلوم
الميقات (٢) • وكذا عاقد الانكحة وهم الذين يتولون اجراء
عقود الزواج بالصيغة الشرعية بين الناس ، وقد كان مقرهم
في حوانيت لهم أيضا بسوق الوراقين بقوص •

ونظرا لأن هذه الدواوين والوظائف كانت تهم عامة

(١) المقرئى : ج ١ ص ١٧٧

(٢) الادبوزى : الطالع النسيم • الترجمة رقم ٤٤٣ •

الشعب ، ترتبط ارتباطا وثيقا بشئون ديانته ، فقد حظيت من قاضي القضاة في كل اقليسم بإشراف دقيق ومباشرة فعلية حتى يتسنى له أن يقف على حسن سير الامور فيها ويعاقب كل من يتقاعس أو يهمل من المسؤولين فيحمله أولا ثم يوقع عليه عقابا صارما عنيفا لا تأخذه فيه رحمة فقد حدث أن رئيس المؤذنين في قوص اختلط عليه معرفة وقت الاذان فأقامه في غير موعده الشرعي فأقصى عن هذه الوظيفة ومنع عنه راتبها فترك قوص وتوجه الى الين (١) .

وقد كان القضاة يعقدون جلساتهم في الجامع أو في بيت القاضي أو مكان متسع في المدينة ، وهم يرتدون اللون الأسود من الثياب المكون من الطرحات والعمامة والشائه ولا يلبسون الحرير أو ما غلب عليه ، وإذا كان الشتاء كان ملبوسهم من الصوف الأسود ، ولا يلبسون اللون الا في بيوتهم (٢) .

العلماء والفقهاء :

لقد كانوا من الكثرة في هذه المدينة حتى أنهم يفوقون الحصر ، وذلك لأن مدينة قوص كانت مشهورة في ذلك الوقت بكثرة جوامعها ومدارسها التي بلغت ست عشرة مدرسة ، ولقد كان أغلب هؤلاء العلماء والفقهاء ليسوا

(١) المصدر السابق الترجمة رقم ٤٤٣

(٢) الدكتور على ابراهيم حسن : مصر في العصور الوسطى .

من أهل قوص وانما هم من بلاد المغرب والمشرق كسبته
 وقرطبة والمهدية ومكة ودمشق وسهرورد واذا ذكر العلماء
 والفقهاء في قوص فانما يذكر البيت القشيري وهو بيت
 العلم والفقه في هذه المدينة فقد تصدى جل أفراده رجالا
 ونساء للدرس والفتوى وعلى رأسهم الشيخ الفقيه
 مجد الدين القشيري الذي تخرج على يديه مختلف أبناء الصعيد
 فلا تكاد تخلو ترجمة من تراجم الطالع السعيد للادفوى
 الا ولاسمة ذكر فيها ، وابنه العالم الفقيه تقي الدين بن دقيق
 العيد القشيري قاضي قضاء المسلمين في العصر
 المملوكي (١) .

وقد اكتسبت طبقة العلماء والفقهاء عموما احترام
 الناس واجلالهم فالأمراء والحكام كانوا يجلبونهم ويقدرونهم
 ويخشونهم ويخافوهم ، وكثيرا ما كانوا يتشفعون للناس
 عندهم فتقبل شفاعتهم (٢) وقد تقلد الكثير منهم مناصب
 رئاسية في الدواوين .

التجار :

لا نكون مبالغين اذا قلنا أن أغلب أبناء
 قوص كانوا يشتغلون بالتجارة وذلك بحكم موقع مدينتهم
 الجغرافي فهم قد حذقوا فن المعاملات من هؤلاء الوافدين
 عليهم من تجار المشرق والمغرب ، ولقد ركبوا في سبيل

(١) الادفوى : الطالع السعيد . الترجمة رقم ٤٦٣

(٢) الادفوى : الطالع السعيد . الترجمة رقم ٣٣١ .

التجارة كل صعب فعبروا البحار وطافوا بشتى المدن
والعواسم الاسلامية يتجرون فى المنسوجات بمختلف
أنواعها والتوابل والعطور والأصباغ والزيوت وما الى ذلك
وقد أثروا من هذه التجارات ثراء فاحشا .

الصناع والحرفيون :

بجانب طبقة التجار هذه نرى أيضا
طبقة الصناع والحرفيين ، فقد شهدت قوص
العديد من الصناعات اليدوية كصباغة المنسوجات ودباغة
الجلود وصناعة الحصر والبرام ، وهى الأواني الفخارية ، وقد
ظهر فى مجتمع قوص النسيج والصباغ والدباغ وغير
ذلك . وبجانب هؤلاء نرى الحرفيين وهم المكاريون من
لهم دراية بالحميز من بيع وشراء وتربية . والكناسون
والاسكافيون والسقاءون والحدادون والقصابون وقد كان
لكل صناعة وحرفة شيخها الذى يتولى شئونها .

الفلاحون :

لا نلمس فى مجتمع قوص هذه الطبقة بالمعنى
المفهوم ، وذلك لأن قوص كانت كما يقول ابن الجيعان ،
ليس لها طين أراض زراعية وانما كان هناك البستانيون
ومفرده بستانى وهو (الجنائنى) أو (الفكهانى) وهو
الذى يشرف على الحدائق والبساتين ويتولى جمع ثمارها
والاتجار فيها ، وهؤلاء كثرة فى مجتمع قوص ، وذلك لأن

أغلب الباني والمنشآت في هذه المدينة كانت السمة الغالبة عليها أن تحاط بالحدائق والبساتين المورقة . وقد خبر هؤلاء البستانيون مختلف أنواع الفواكه من حيث زراعتها وتسويقها .

العوام :

هم الطبقة الدنيا في كل مجتمع وفي مجتمع قوص يمثلون في حملة المشاعل أى الذين يحملون البيارق في المواسم والاعياد والسقائين والكناسين والاسكافيين ، بجانب هؤلاء نرى قطاع الطرق واللصوص وكان هؤلاء يشكلون خطراً على المجتمع من حيث استتباب الأمن فيه لكثرة شغبهم وأعمالهم التخريبية .

النصارى :

كانت مدينة قوص مكتظة بالنصارى منذ أقدم العصور ، وحينما فتح العرب مصر وانتشر الدين الاسلامى أسلم من هؤلاء من غمر الله قلبه بالايمان فبقى منهم من بقى على دينه ، والدليل على كثرة النصارى في هذه المدينة كثرة الكنائس والأديرة بها فقد ذكر أبو صالح الأرمنى في كتابه الكنائس والأديرة (١) ، وعبد الغفار بن نوح الأقصرى الادفوى والمقرىزى في مؤلفاتهم عديداً من

(١) أبو صالح الارمنى : كنائس وأديرة مصر من ١٠٣ .

هذه الكنائس والأديرة بالاضافة الى أنه كان لهؤلاء
النصارى خصوصا في عصر الأيوبيين والمماليك مطلق
الحرية في آدائهم لشعائهم وطقوسهم الدينية والاحتفال
بأعيادهم ومواسمهم ، وهم أى النصارى يمتازون بالنزاهة
والأمانة والعفة والصدق والاخلاص فيما يؤدونه من أعمال
بجانب أنهم كانوا مهرة في علم الحساب ، لذلك فإن الأمراء
والحكام أسندوا اليهم جباية الخراج وشئون الحسبة وكل
ما يتعلق بشئون المال أيضا ، وقد كانت تربطهم بالمسلمين
صلاة ود قوية حتى أن قسيسيهم ووجهائهم كانوا يحترمون
ويجلون علماء المسلمين ويقدرونهم، فقد ورد أن العالم الفقيه
الشيخ على بن وهب بن مطيع القشيري وهو من أشهر
العلماء في قوص قصد يوما مستوفيا نصرايا له صورة
وجاه يتولى جمع الخراج من الناس كي يتشفع عنده لصاحب
حاجة ، فأمر أن يصحبه الى بيت هذا المستوفى فقال له
الخادم متعجبا : ياسيدى أنت تريد أن تمشى الى بيت هذا
النصرانى ؟ ، فأصر الشيخ العالم الفقيه على ذلك واتجه الى
بيت هذا المستوفى وطرق الباب فخرجت الجارية فقال لها
الشيخ الفقيه قولى لسيدك ان الشيخ الفقيه المدرس
بالباب ، ودخلت فاذا المستوفى قد خرج حافيا وقال ياسيدى
كنت ترسل الى خادمك وأنا أحضر اليك (١) وهذه الواقعة
تعطينا صورة صادقة على مدى الاحترام المتبادل بين علماء
المسلمين ووجهاء النصارى في قوص .

(١) الأدفوى : الطالع السعيد ، الترجمة رقم ٣٣١ .

الأقليات الأجنبية :

لقد شهد مجتمع قوص في العصر الاسلامي عددا من الجنسيات المختلفة من الشرق والمغرب عاشت تحت وارف ظلاله وذلك لان هذا المجتمع في ذلك الوقت كان مجتمعا مفتوحا لقوافل التجار والحجاج من المشرق والمغرب فقد ذكر ابن جبير وياقوت الرومي وغيرهم عددا من هذه الجنسيات مثل العدنيين واليمنيين والأبشاش والهنود والمغاربة وعرب التكرور وهم من قبائل غرب افريقية ، كل هذا الخليط العجيب من هذه الجنسيات كان يعيش في مجتمع قوص ويشغل بالتجارة في منتجات المغرب واليمن والحبشة وافريقيا الوسطى وقد نشأت فيما بين هذه الاقليات من التجار ما يسمى برابطة التجار أطلق عليها اسم (التجار الكارمية) أو الكانمية (١) واتخذ هذا الاسم على الخصوص اعتبارا من العصر الأيوبي ، وكانوا يتجرون في التوابل (الفلفل) والبهار) وكانت قوص احدى المراكز الهامة في الديار

(١) الدكتور عبد الرحمن زكي : الاسلام والمسلمون في شرق الحقيقة ص ٥ ، حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية في افريقية ج ١ ص ٥٨ - ٥٩ ، الدكتور صبحي ليب : مقال بعنوان التجارة الكارمية في مصر في المعصور الوسطى ، المجلة التاريخية المصرية المجلد الرابع العدد الثاني مايو ١٩٥٢ من ص ٥ - ٦٤ .
العلقشندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

المصرية في هذه التجارة وقد انضم الى هؤلاء التجار الكثير من التجار في مختلف بلاد الاقليم وقد امتازوا بالورع والتقوى وتمسكهم بالدين الحنيف حيث أنهم جعلوا من أنفسهم دعاة للاسلام الى جانب اشتغالهم بالتجارة .

وقد دخل هؤلاء التجار بلاد الحبشة تحت ستار التجارة وأخذوا ينشرون الدعوة بين الاحباش فأسلم على أيديهم الكثيرون ، وقد أثرى هؤلاء من خلال هذه التجارة ثراء عظيما حتى أنهم أصبحوا يمثلون في قوص طبقة الرأسمالية الا أنهم قد أنفقوا الكثير من أموالهم هذه في نشر الدعوة الاسلامية في البلاد التي كانوا يسافرون اليها ، كما أن مجتمع قوص قد استفاد كثيرا من هؤلاء فأنشأوا به عديدا من الربط والزوايا والمساجد كما أنهم أجزلوا في العطاء لرجال العلم والدين والشعراء أيضا وقد ورد ذكر الكثير منهم عند ابن نوح في كتابه الوحيد والادفوى في طالع السعيد (١) .

المرأة ومدى نشاطها :

لقد كان للمرأة أيضا في مجتمع هذه المدينة نشاطا ملحوظا في شتى نواحي الحياة فلقد أخذت طريقها الى

(١) ابن نوح : الوحيد في ورقات متفرقة . الادفوى : الطالع السعيد : تراجم متفرقة .

السوق كى تبتاع ما تتطنبه فى شئون حياتها من مأكـل
ومشرب وملبس ، ملتزمة فى ذلك الحشمة والوقار أنـساء
خروجها من منزلها ، فهى تضع القناع على وجهها ولا تبدى
تبرجا فى زيها لذلك فقد كسبت احترام مجتمعها واجلاله
ولقد لعبت دورا هاما فى الوقوف بجانب زوجها ومعاونته
فى أمور دنياه حيث حرصت على أن تهىء له حياة هانئة
آمنة كان لها أبعد الأثر فى حياته وتقدمه فى أعماله ، لذلك
فهو يفار عليها فيألف أن تقف بجانبه فى متجره أو
حانوته تساعده فى أمور معاشه وكان يرى فى ذلك عارا
وشنارا . وأما فى جانب الحياة الدينية فقد سجلت المرأة
القوصية بكل فخر جهدا محمودا والدليل على ذلك أنه قد
تردد فى مجتمع قوص كثير من أسماء النساء الشهيرات
اللائي لعبن دورا هاما فى هذا الجانب . وإذا ما ذكرت
الناحية الدينية فى قوص فإنه يذكر البيت القشيري فقد
خرج من هذا البيت المعروف كثير من النساء الجليلات شاوكن
مشاركة فعالة فى نشر الثقافة الاسلامية فى ربوع إقليم
قوص ، فمنهن تاج النساء بنت على القوصية ، وخديجة بنت
على بنت وهب القشيرية ، ورقية بنت محمد بنت على بن
وهب القشيرية ، وقد تحدث الادفوى فى طالع السعيد عنهن
فى تراجم متفرقة (١) بالاضافة الى ابن نوح الاقصرى

(١) الادفوى : الطالع السعيد . الترجمة رقم ١٠٧ والترجمة
رقم ١٦٤ والترجمة رقم ١٧٠ .

في كتابه الوحيد قد أشار أيضا الى كثير منهم مثل السيدة
المعروفة (بالست سلامه) الفقيهة المحدثه التي كانت
تلبس الأزرق من الثياب وتشترك في العلوم الفقهية
والمعروفة بمواصلة الاربعين النووية وقد كسبت بتقواها
وصلاحها هذا تقدير الوجهاء والاكابر من اقليم قوص (٢) .
من خلال هذا النشاط الذي أحرزته المرأة القوصية وبصفة
خاصة في الجانب الديني، ونستطيع أن نقول ان المرأة بوجه
عام في مجتمع قوص في العصر الاسلامي كانت على قسط
وافر من الفهم والادراك لتعاليم دينها ودنياها .

(١) ابن نوح : الوحيد ج ١ ورقة ١٨٤ وجه .

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الاسكندرية

الفصل الرابع

الحياة بوجه عام في مجتمع قوص خلال هذه الفترة

المنشآت والمباني - الاسواق والعوانيت
والتجار والصناع - المواسم والأعياد الدينية -
موسم الحج - الطريق من قوص الى الاراضى
الحجازية - وسائل اللهو والتسلية -
الموسيقى والغناء والفنون •

الحياة بوجه عام فى مجتمع قوص فى العصر الاسلامى

من الواضح فيما سبق أن أوردناه من خلال حديث المؤرخين عن مدينة قوص أن مجتمع هذه المدينة يكاد يكون منفردا بين مجتمعات مدن الصعيد بأسره وذلك من حيث ازدهاره ونشاطه فى مختلف جوانب الحياة ، فهو مجتمع مفتوح لعدد من الجنسيات فأنت ترى فيه العذنى والحشى واليمنى والمغربى . وهؤلاء أما تجار أو حجاج أو مسافرون أو علماء وفقهاء نزلوا هذه المدينة وأقاموا بها فترة ثم أنست نفوسهم طيب المعيشة بها فاستوطنوها وتناكخوا على أرضها وأعقبوا نسلًا صالحا . وهذا الخليط العجيب من هذه الجنسيات المتباينة فى العادات والتقاليد الاجتماعية والطباع تفاعلت بمرضى الزمن فى سهولة ويسر مع سكان هذه المدينة الاضليين وكونوا مجتمع قوص فى العصر الاسلامى . وقد كان نتيجة لذلك أن الحياة فى هذه المدينة أصبحت متدفقة فى كل ركن من أركانها وفى كل موسم من مواسمها الدينية وأعيادها وبصفة خاصة فى عصر سلاطين المماليك .

ونحن من خلال كتب المؤرخين والرحالة العرب سوف نتلمس جوانب الحياة في هذه المدينة في شوارعها ومنشأتها وأسواقها وحوانيتها وفي كل مظهر من مظاهر أهلها الاجتماعي .

المنشآت والمباني :

تطل مدينة قوص على الساحل الشرقي من النيل وتستقبل الوافدين إليها بمبانيها ومنشأتها العديدة كالمنازل التي يتكون أغلبها من الحجارة أو الطوب الأحمر . وقد امتازت هذه المنازل بكثرتها والتصاقها ببعضها ثم القصور التي تخص أصحاب الثراء والجاه والتجار وأرباب المعاشات ، بالإضافة الى الفنادق والنزل والخانات ، وهي لا يواء الغرباء والوافدين . ومن أشهر خانات قوص خان يعرف بخان السلطان (١) يقع بظاهر هذه المدينة قد بناه أحد السلاطين وهو عبارة عن ساحة مربعة بداخلها ثلاثة صفوف من الممرات بعضها فوق بعض يتكون من غرف صغيرة مؤثثة وبه صحن متسع من الداخل تربط فيه دواب النزلاء والوافدين ويحيط جوانبه من الخارج حوانيت التجار (٢) وقد تعرض خان قوص هذا لحريق مدمر (٣) .

(١) الادنوى : الطالع السعيد ، الترجمة رقم ٢٢١ .

(٢) البستاني : دائرة المعارف الإسلامية مادة خان .

(٣) الادنوى : الطالع السعيد ، الترجمة رقم ٢٣١ ص ٢٨٨ .

وقد كانت قوص تغص بالأسبلة (١) والحمامات التي من أشهرها حمام يعرف بحمام الزبير ، والربط والزوايا والمدارس والمكاتب ثم المساجد والجوامع بمآذنها ومناراتها السامقة والعمارة دائما بذكر الله ، وكل هذه المنشآت والمباني غالبا ما كانت تحاط بالبساتين والحدائق التي تكسيها روعة وجمالا وحسنا وتعتبر هذه المنشآت منافع عامة يتبرع باقامتها السلاطين والامراء وأرباب الجاه والثراء ، ويوقفون عليها الاوقاف والاحباس لذلك فهي تحمل أسماءهم في الأغلب الأعم ، وقد امتازت قوص بشوارعها ودروبها وكثرة أزقتها وعدم استوائها فهي كثيرة المرتفعات والمنخفضات ، كما أنها أيضا كثيرة المنحنيات والمنعطفات تكتظ دائما بالبيعة الجائلين والسقائين وأرباب الحرف وتضاء ليلا بالاسرجة والقناديل (٢) .

الأسواق والخوانيت :

تمثل الأسواق في مدينة قوص نهضتها الاقتصادية فمن خلال هذه الأسواق ومن خلال نشاطها وتقدمها وازدهارها نستطيع أن نقف على مدى تطور هذه النهضة الاقتصادية التي كانت تعيشها قوص خلال هذه الفترة ،

(١) الأسبلة مفردة سبيل .

(٢) ابن نوح الاقصرى الوحيد : ورقات متفرقة .

فقد كانت هذه الاسواق دون ما جدال عامرة بالداخل فيها
والخارج منها من التجار وأرباب المعاشات كما أنها كانت
ملينة بالحوانيت المكتظة بمختلف البضائع من المشرق
والمغرب ، وقد وصف الشريف الادريسي وابن جبير هذه
الاسواق والحوانيت بأنها جامعة كثيرة الخيرات ومن أهم
أسواق قوص : سوقان هاما هما سوق الغرابليين وسوق
الوراقين . فأما سوق الغرابليين أو المغربلين فقد كان يقع
في ظاهر هذه المدينة يتوسطه مسجد مشهور يسمى
بالمسجد المعلق ، وهذا السوق يزخر بمختلف أنواع الغلال
والحبوب التي كانت ترد الى مدينة قوص من توابعها ، وهو
مقر رئيسي لتجار الحبوب من مختلف أنواعها من قمح
وشعير وفول وذرة وعدس وما الى ذلك كما أن اسمه
ارتبط بالغرابليين الذين هم طائفة تتولى غريبة الغلال
وتنقيتها من الأتربة والسوس والشوائب التي من شأنها
ان تجعل الدقيق بعد خبزه مرا (١) .

وأما سوق الوراقين فقد كان موقعا نشطا ساعد على
نشاطه ، هذا ما كانت تتمتع به قوص من نهضة ثقافية
واسعة خلال هذه الفترة ، وقد قال في تعريفه ابن خلدون
ان أهله هم المعنيون بالانساخ والتصحيح والتجليد وسائر

(١) عبد الرحمن ابن نصر الشيزري نهاية الرتبة في طلب
الحسبة ص ٢١

الامور الكتبية والدواوين (١) . وبناء على ذلك فان هذا السوق يرتبط ارتباطا وثيقا بالعلماء والفقهاء والطلبة الذين كانت تكتظ بهم مدينة قوص في ذلك الوقت الاضافة الى ارباب الاقلام من رجال الدواوين . ونحن اذا ما تجولنا في سوق الوراقين هذا نجد انه كان حافلا أيضا بحوانيت الشهود وعاقدا الانكحة الذين يتولون اجراء عقود الزواج بجانب النساخ المعروفين بخطهم الجيد الحسن الذين يجلسون منهمكين في نسخ الكتب الفقهية والتاريخية وبيعها بأثمان مرتفعة ، وكذا المجلدون البارعون في فن تجليد الكتب بعد نسخها بالاضافة الى باعة الورق والأقلام والحبر (٢) كل يحاول أن يروج لتجارته وسلعته وفوق كل هؤلاء نجد أيضا طائفة تخصصت في كتابة الشكاوى والمظالم للناس لامتازت بأسلوبها القوى الدقيق في تصوير الشكوى أو المظلمة حتى أن الحاكم أو القاضي حين ينظرها تأخذ بصاحبها الشفقة أو العطف فيبرم حكما في صالحه . ولكنه مع الاسف أن جميع العاملين في هذه السوق قد تفشت بينهم الوشائيات والفتن والتميمة فكان سلوكهم مع الواردين عليهم سلوكا شائنا فهم يسلبون الناس أموالهم ويغلظون لهم في القول ويعطونهم وعودا غير صادقة لذلك فان الناس قد ساءت الظن بهم

(١) ابن خلدون المقدمة ص ٤٢١ .

(٢) الادفوى : الطالع السعيد ص ٥٧٦ .

وبمعاملتهم . وقد وصف هذه المعاملة السيئة أحد الفقهاء
في منظومة شعرية يقول فيها :

أيا سائلي حالي بسوق لزمته
يسمونه سوق الوراق ما يجدي

خذ الوصف مني ثم لا تلو بعدها
على أحد من سائر الخلق من بعدى

يكسب سوء الظن بالخلق كلهم
وخسة طبع في التقاضى مع الحقـد

وينقص مقدار الفتى بين قومـه
ويدعى على رغم من القرب والبعد

وان خالف الحكم فى أمر أمرهم
يرى منهم والله كل الذى يردى

ولا سيما فى الدهر ان رسموا لنا
بأربعة فى كل أمر بلا بـه

ويكفيه تمعير (١) النقيب وكونه
يشتط (٢) بين الرسل فى حاجة الجند

(١) تمعير : غطسة .

(٢) يشتط : يجرى يمينا ويسارا .

وان قال انى قانع بتفردى
فهذا معاش ليس يحصل للفرد

فبالله الا ما قبلت نصيحتى
وعانيت ما يغنيك عنه وما يجدى

وان كنت مقهورا عليه حاجة
فصاير عليه (لا تعيد ولا تبدى (١)

وبجانب هذين السوقين نرى سوق قوص العام
الذى كان يقع فى قلب هذه المدينة وكانت تروج فيه
مختلف البضائع والمصنوعات الواردة من بلاد المشرق
والمغرب بجانب المحلية منها ، التى كانت تنتجها قوص ،
فنحن نرى فيه تجار التوابل ، كالفلل والبهار « تجار
الكارمية » التى سبق الحديث عنها بجانب المسك والقرفة
والكافور وخشب الابنوس ومختلف العطور ، كما أن
حوائيت المنسوجات الحريرية والقطنية والكتانية قد
التحم بعضها ببعض وجد أهلها الذين امتازوا بالمهارة
والدقة التى وقفوا عليها من الوافدين عليهم من بلاد
المشرق والمغرب فى اعطاء نتاج حسن لمصنوعاتهم هذه ،
فمن خلال مرئية يرثى بها أحد شعراء قوص قزايا
نستطيع أن ندرك مدى نشاط هذه الصناعة التى كان
يتمتع بها أرباب هذه الصناعات فيقول الشاعر :

(١) الادفوى : الطالع السعيد ، الترجمة ٢٦٣ .

بكى فقدك المكوك والمقبض السنط (١)
وناح عليك النير والتخت (٢) والمشط

وأعولت الاطاخ (٣) والمغزل السدى
تدوره فيها اناملك النشـط

انامل لم تخلق لشيء سوى السدى (٤)
ولقط وتخليص وياحبذا اللقط (٥)

فقد اعطى هذا الشاعر صورة صادقة على مدى تقدم
صناعة الخز (الحرير) وبالتالى ، فقد أوضح لنا الأدوات
والآلات التى كانت تستخدم فى هذه الصناعة فهو يشير
الى المكوك والمغزل والتخت والنير والمشط والاطاخ ، كما
انه قد أكد لنا مهارة وبراعة القائمين بهذه الصناعة .

وبجانب حوانيت النسيج هذه نرى أيضا حوانيت
دباغة الجلود والصباغة وصناعة البرام والحصر والمراوح
وكل هذه الصناعات محلية فرضتها بيئة قوص التى
توفرت فيها المواد الخام التى قامت عليها هذه الصناعات ،

(١) السنط : بالكسر - الفصل بين الكف والساعد .

(٢) التخت : رعاء تصان فيه الثياب .

(٣) الاطاخ : ومفردها لطنح : عامية يستعملها العامة للقصبة

التى يدير حولها الحائك الغزل .

(٤) السدى : بفتح السين المهملة المشددة - مامد من الثوب .

(٥) الادقوى : الطالع السعيد - الترجمة ١٦٠ .

فقد أظهر أبناء قوص فنية ومهارة بالغة حتى انهم سيطروا على مختلف أسواق الصعيد ، فدباغة الجلود مثلا ساعدت على قيامها كثرة المراعى التى امتازت بها قوص ، وصناعة البرام التى هى الاوانى الفخارية التى كانت تستخدم فى الشئون المنزلية كأوانى الشرب والاكل والطهى قد أدى الى قيامها توافر معدن البرام ، وهو الطينة الطفلية التى كانت تقوم عليها هذه الصناعة ، وصباغة المنسوجات التى تدخل فيها كثير من النباتات كالنبيلة المتوفرة فى هذه المدينة ، وقد كانت الطريقة المتبعة فى هذه الصناعة هو أن الحانوت الخاص بها تمتد فيه أزيار مختلفة بها ألوان متعددة ، ويصبغ كل ثوب فيها حسبما يطلب صاحبه من ألوان الصبغ . فهذا نهر قد خصص لصباغة اللون الاحمر ، وآخر قد خصص للون الازرق ، وكان الصباغ يلقى بالأثواب المراد صبغها فى هذه الأزيار ليرتكها مدة حتى تتمكن من اللون ويتمكن منها اللون ثم يخرجها من زيرها ويعصرها عصرا جيدا ، ويبدأ بعد ذلك يدقها بمطرقة من خشب مدة طويلة حتى تغدو أصيلة لصباغة (١) . بجانب أننا نرى تجار الماشية والمكارين الذين يتولون شراء الحمير وبيعها والحلوانيين والفرائين الخبازين وأرباب الحرف كل يحاول أن يروج لما فى يديه .

(١) ابن العباد الحنبلى : شذرات الذهب ، ج ٥ حوادث ٦١٢

من بضاعة أو سلعة كما ان السقائين والحلاقين كانوا يطوفون بالشوارع والأزقة يؤدون خدماتهم فى مرح وسرور . وقد كانت هذه الاسواق تقع تحت تفتيش دقيق من المحتسب الذى كثيرا ما كان يفاجئ أهل هذه الاسواق ويقتحم حوانيتهم ومتاجرهم ، ويراقب أيضا المكاييل والموازين ويعاقب كل من يحاول الغش أو التلاعب بحقوق الناس .

(٢)

وقد اختارت مدينة قوص يوم الأحد (١) من كل اسبوع سوقا لها فى هذه الفترة التى تؤرخ لها ، الا أنه لكثرة الحوادث والفتن التى كثيرا ما كانت تقع فى هذا اليوم بالذات الذى يتفق فيه خروج النصارى من كنائسهم وتجمعهم استبدلت فيه السلطات الحاكمة يوم الاثنين من كل اسبوع منعاً من هذه الفتن والحوادث .

المواسم والأعياد الدينية :

لقد حظيت المواسم والأعياد الدينية باهتمام بالغ من أهل قوص ، وذلك لشدة تمسكهم بتعاليم الدين الاسلامى الحنيف ، فقد حرصوا كل الحرص على أن يأخذ الاحتفال بمثل هذه الأعياد والمواسم طابعا حماسيا قويا

(١) ابن نوح الاقصرى الوحيد . . مخطوط ج ٢ ورقة ١٥ وجه .

فقد كانوا يفرطون في التبتل والخشوع الى الله تعالى يطلبون رحمته ورضوانه في هذه المناسبات المباركة .

ففى عيد رأس السنة الهجرية وعاشوراء وأيام المولد النبوى الشريف وغرة رجب وليلة الاسراء والمعراج وغرة شعبان وليلة النصف منه وشهر رمضان ولياليه المباركة وبصفة خاصة ليلة القدر والغرة الأخيرة منه وعيد الفطر المبارك وعيد الاضحى المبارك . كان الناس بمختلف طبقاتهم فى هذه المدينة يتعاطفون فيما بينهم فى كل هذه المناسبات الكريمة مظهرين شعور المحبة والأخوة ببالغون فى الانفاق فى وجوه البر والخير . ولقد كانت المساجد والزوايا والطرق تضاء ليلا فى هذه المواسم بالاسرجة والقناديل حتى مطلع الفجر كما كانت تقام الأذكار وتنشد القصائد فى مدح النبى عليه الصلاة والسلام وآل بيته الأطهار ، الا أن موسم الحج فى قوص كان له طابع مميز فى هذه الأعياد السابقة وذلك لأنه يحمل دلالتين قويتين فالدلالة الاولى هى الدلالة الدينية وهى بيت الله الحرام والطواف بالكعبة وزيارة الروضة الشريفة ، والدلالة الثانية هى الدلالة الاقتصادية التى كانت تعيشها هذه المدينة خلال هذا الموسم من كل عام . فقد كانت تموج الأسواق وتعمر الحوانيت بمختلف البضائع والسلع ويزداد حجم البيع والشراء ويعم الرخاء مختلف أبناء قوص بالاضافة الى أن هذه المدينة كانت تستقبل فى هذا الموسم من كل عام الأمراء والوجهاء والقضاة والعلماء

والفقهاء ورجال الصوفية وهم فى طريقهم الى قضاء
فريضة الحج حيث كانوا يقضون بقوص الأشهر الطوال
قبل توجههم الى الأراضى المقدسة أو بعد أدائهم فريضة
الحج . فالرحالة الفارسى ناصر خسرو والشريف الإدريسي
وياقوت الرومى والرحالة المغربى ابن جبير وابن بطوطه
قد عرفوا هذه المدينة ومكثوا فيها الأيام الطوال وأشاروا
اليها فى مؤلفاتهم بالاضافة الى أن محبى الدين بن عربى
وعمر بن الفارض وأبو الحسن الشاذلى وأبو العباس المرسى
هؤلاء الصفاة الأخيار قد نزلوا هذه المدينة وأقاموا بها
فترة طويلة خلال موسم الحج كما أشار الى ذلك ابن نوح
الأقصرى (١) وقد كان لهذا أثر كبير على الناحية الثقافية
فى قوص حيث انتهز العلماء والفقهاء فى هذه المدينة وجود
هؤلاء العلماء والمتصوفة بين ظهرائهم فالتفتوا حولهم
واستفادوا كثيرا على أيديهم فى علمى الحقيقة والشرعية .

الطريق من قوص الى الأراضى المقدسة :

لقد كان الحجاج وهم فى طريقهم الى الأراضى المقدسة
يتوجهون من قوص الى صحراء شاسعة كانت تسمى فى
العصر الاسلامى بصحراء « عيذاب » التى هى الصحراء
الشرقية الآن ثم منها حيث يركبون بحر القلزم وهو

(١) ابن نوح الأقصرى : الوحيد فى سلوك أهل التوحيد فى
ورقات متفرقة .

المعروف بالبحر الأحمر الآن ، ولقد سبق أن أشرنا الى هذه
المواضع من قبل ، ثم من هذا البحر يتجهون الى الأراضي
المقدسة حيث يركبون سفنا كانت تسمى « الجلاب » وقد
وصف الرحالة المغربي ابن جبير هذا الطريق وصفا مسهباً
فنراه يقول :

ان قوافل الحجاج تأخذ طريقها من مدينة قوص الى
مكان يقال له المبرز وهو موضع في الاتجاه القبلى من قوص
على مسافة يسيرة منها فسيح المساحة محدق بالنخيل يجتمع
فيه رجال الحاج ويشد فيه ومنه يرحلون وفيه أيضاً
يوزن ما يحتاج اليه وزنه على الحماليين كما كانت تعد
وتجهز فيه الابل التي كانت الوسيلة الوحيدة للمواصلات
فى ذلك الوقت وكانت هذه الابل على نوعين : نوع لذوى
اليسار ونوع لعامة الحجاج البسطاء ، فأما نوع ذوى
اليسار فيعد من الابل اليمانية ويجهز بالمحامل الموثوقة
بالسروج السفرية ذات أذرع قد حفت بأركانها تثبت
عليها مظلة وهى تسع راكبين يكون الراكب فيها مع عديله
فى كن من لفح الهاجرة ويقعد مستريحاً فى وطائه متكئاً
يتناول مع عديله ما يحتاج اليه من زاد وشراب ويطالع
متى شاء المطالعة فى مصحف أو كتاب ومن شاء ممن
يستجيز اللعب بالشطرنج ان يلاعب عديله تفكها ، وأما نوع
عامة الحجاج فهو الابل المجردة من المحامل والسروج لذلك
فقد كانوا يكابدون من سموم الحر عنتاً ومشقة ، وقد أوضح
ابن جبير أن هناك طريقين يؤديان الى ساحل البحر الأحمر

وهما طريق قوص - عيذاب ، وطريق قنا / عيذاب وهذان الطريقان يلتقيان في موضع يقال له ماء العبدین إلا أن طريق قوص هذا كان أسهل وأقصر وهو الذي سلكه هذا الرحالة .

الى عيذاب :

بعد أن تجهز الإبل تشد الرحال وتسير القوافل في صحراء كانت تسمى صحراء عيذاب وهي الصحراء الشرقية حتى تصل الى ساحل بحر القلزم أو بحر الملح أو بحر فرعون وكلها أسماء كان يعرف بها البحر الأحمر في العصر الاسلامي وهذه القوافل تمر من موضع المبرز الآنف ذكره الى ماء يعرف بالحاجر ثم الى موضع يعرف بقلاع الضياع ثم الى محط اللقيطة ثم الى ماء العبدین وقد سمي كذلك لأن عبدین قد ماتا عطشا قبل أن يرداه ، ثم دفنا به ثم الى موضع يعرف بدناقش ثم الى ماء شاغب ثم الى ماء امتان ثم الى ماء يعرف بميجاج ثم الى ماء يعرف بالعشمسيرا . ثم يسلك الحجاج طريقا سهلا رمليا يسمى الوضع ثم الى ماء الخبيب ثم منه مباشرة الى ميناء عيذاب على ساحل البحر الأحمر وهو من أشهر الموانئ الاسلامية في ذلك الوقت ، وقد قطع ابن جبير هذه المسافة في هذه الصحراء الشاسعة في تسعة عشر يوما .

ركوب البحر :

يركب الحجاج من ميناء عيذاب هذا البحر حتى يصلوا الى ميناء جده وكانت الوسيلة الوحيدة المعروفة لركوب البحر آنذاك هي المراكب التي كانوا يسمونها الجلابل وهي من نوع بسيط لكنه يمتاز بالمثانة في الصنع وقد كان أهل عيذاب الذين يطلق عليهم العيذازيون مهرة في صنع هذه المراكب وذلك لأنها كانت الوسيلة الوحيدة للتكسب والرزق يحملون فيها التجار والحجاج الى جدة ويردونهم وقت انقضاءهم من أداء الفريضة .

المراكب العيذاوية :

كيف كانت تصنع هذه المراكب ؟ : لقد أعطى ابن جبير صورة صادقة عن مهارة أهل عيذاب في صنعهم لهذه المراكب ، فنراه يقول باختصار انها كانت تصنع من خشب كانوا يستوردونه من الهند واليمن بطريقة لاتدخل فيها المسامير الحديدية البتة ، وذلك بأن يقطع الخشب ألواحاً بمقاييس معينة بحيث يتضافر بعضه مع بعض عند تركيبه وهي طريقة التعشيق التي يسميها الرحالة التفليق ثم تجمع هذه القطع ويربط كل منها مع ما يشابهها بحبل مصنوع من قشر جوز الهند ، بعد درسه ، ثم يخاط جسم المركب كله بعد ذلك بحبال من ليف النخيل خياطة محكمة بحيث لا تترك فرجة أو خرق صغير وبعد أن يتم

بناء جسم المركب بهذه الصورة يدهنونه بزيت الخروج
أو بزيت سمك القرش أو السمن ويفضلون زيت سمك
القرش وذلك لاعطائه قدرا من المرونة لجسم المركب حتى
تتحمل الصدمات والاحتكاكات الناشئة من كثرة الشعاب
الصخرية المعترضة في مجرى البحر الأحمر ، وأما أشراعتها
فهي مصنوعة من خوص المقل (الدوم) ورغم ضعف بنية
هذه المراكب إلا أنها مناسبة لطبيعة هذا البحر بسبب
مرونتها ، وقد كان الحجاج يكثر من هذه المراكب من العيذابيين
الذين كان الجشع يملأ قلوبهم فصاحب المركب لا يهتم
سلامة الحجاج بقدر ما يهتم جمع المال فهو يشحن مركبه
بأكبر عدد ممكن من الحجاج حتى تغدو كأنها أقفاص
الدجاج المملوءة على حد تعبير ابن جبير ، ويقولون في ذلك
مثلا « علينا بالحجاج وعلى الحجاج بالأرواح » وكانت هذه
المراكب تقطع المسافة في البحر من ميناء عيذاب حتى
ميناء جدة في حوالى تسعة أيام حسبما أشار ابن جبير (١) .

(١) رحلة ابن جبير ص ٣١ - ٣٥ ، ص ٣٧ .

وسائل اللهو والتسلية فى مجتمع قوص

لقد عرف فى أهل قوص النشاط والهمة والحركة والحيوية فى مختلف أوجه الحياة فهم لا يميلون بطبيعتهم الى الكسل أو التواكل بل كان الجد والعمل والجلد من أهم صفاتهم المميزة وكان لابد والأمر كذلك الى أن يركنوا الى الهدوء والراحة والاستجمام حتى يستجمعوا نشاطهم وحيويتهم . فهم فى فترات راحتهم واستجمامهم هذا كانوا يعمدون الى وسائل كثيرة من وسائل اللهو والتسلية يقطعون فيها أوقات فراغهم ، وقد كانت هذا الوسائل تختلف باختلاف السن ، فالشيوخ مثلا وسائلهم فى ذلك تختلف اختلافا تاما عن وسائل الشبان . فلو أننا تتبعنا الشيوخ فى كيفية قضائهم أوقات فراغهم لوجدنا انهم كانوا يميلون الى التجمع فى الدواوين والساحات أو أمام منازلهم من بعد صلاة العشاء على أضواء الأسرجة والقناديل يتجاذبون الحديث فى شئون حياتهم العامة من تجارة وبيع وشراء وما الى ذلك أو أنهم يعمدون الى القراءة فى بعض الكتب خاصة الكتب الدينية والتاريخية التى تتناول سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أو مناقب الأولياء

أو يتلهون بالسير الشعبية كسيرة عنتره وأبي زيد الهلالي وما إلى ذلك . وقد كانت طريقتهم في القراءة هي أن ينتدبوا شخصا من بينهم معروفا بحسن صوته وطول نفسه وقدرته على النطق السليم وهم في أثناء ذلك يتناولون أنخاب القهوة والشاي ويلفون التبغ ويقضون في ذلك وقتا طيبا . وإذا ما انتقلنا إلى الشباب وكيفية قضائهم لأوقات فراغهم نجد أن الأمر يختلف اختلافا كبيرا فالشباب أمامه وسائل اللهو والتسلية التي تفوق المحصر فقد حذق في العصر الإسلامي لعبة الشطرنج وقد كانوا يقضون فيها أوقاتا طويلة تنسيهم ما كلهم ومشربهم (١) وبجانب الشطرنج هذه كانت هناك لعبة تشبه إلى حد كبير في عصرنا الحالي لعبة الورق (الكوتشينة) فقد ورد ذكرها في إحدى تراجم الطالع السعيد . « فهم يكتبون أوراقا في بعضها صورة شخص صاحب متاع ، وفي أخرى صورة لص ، فإذا حصلت الورقة التي فيها صاحب المتاع يقول : يا جماعة ضاع لي كذا وكذا ، وأريد شخصا أو شخصين - على قدر ما يخطر له - يحضر لي اللص . »

كما أن البعض كانوا يميلون إلى حل الألغاز الشعرية التي كانت منتشرة في ذلك الوقت والتي جرت على لسان الكثير من شعراء قوص وكانوا يجدون في حلها متعة ذهنية فائقة . وفي مجال الألعاب الرياضية نجد في

(١) الادفوى الطالع السعيد الترجمة ٣٩٦ .

الشبان ميلا شديدا الى السباحة في النيل والتسابق فيما بينهم بالاضافة الى انهم كانوا اصحاب باع طويل في ألعاب الوثب والقفز (١).

الغناء والمغنون :

لقد كان أهل قوص عموما يميلون الى الطرب ويمشقون الغناء وقد عاش في مجتمع اقليم قوص بوجه عام كثير من المغنين والمغنيات والملحنين الذين لحنوا الشمر وغنوه وقد اورد الادفوى ذكرا لكثير من هؤلاء في بعض تراجمه ، فقد قال ان الشيخ عبد الغفار بن نوح قد كتب بخط يده وهو في قوص هذه الأبيات التي يقول فيها :

انا أفتى أن ترك الحب ذنب

آثم في مذهبي من لا يحب

ذق على أمرى مرارات الهوى

فهو عذب وعذاب الحب عذب

كل قلب ليس فيه ساكن ضبوة

عذرية ماذا قلب

ودفعها الى شخص يدعى جعفر المذموم الذي كان

(١) نفس المصدر الترجمة ٣٩٦ .

يلحن الشعر ويغنيه فلعننا وعناها وشاعت على لسان أبنا
قوص (١) . كما أورد أيضا أن الكاتب الأديب الساطم
حجازي بن أحمد الدبر قطاني كان يعجب بعناء معصه
تدعى « النصيفة » وقد غنت من شعره هذه الأبيات التي
يقول فيها .

أدخلني ندحلي علينا سرورا
أنت والله نزهة العشاق

لاتميلي الى الخروج سريعا
تخرجني عن مكارم الأخلاق (٢)

وقد كان بجانب النصيفة هذه مغنية أخرى تدعى
« جارية النطاع » ذاع صيتها أيضا في إقليم قوص فقد
كانت هي وغيرها الكثرات أيضا يشاركن في ليالي
الأفراح والمواسم والأعياد وينشدن المدايح النثرية والأشعار
الحكمية والقصائد في العشق والغزل بأصواتهن العذبة
الشجيبة التي تأخذ بأسماع أبناء قوص حتى أنهم كانوا إذا
ما سمعوا بلياليهن يقطعون في ذلك مسافات بعيدة ويتكبدون
كثيرا من المشاق في سبيل مشاهدتهن وسماعهن وهم في
كل ذلك في قمة السعادة والنشوة (٣) .

(١) الترجمة رقم ٢٥٠

(٢) المصدر السابق - الترجمة ١٢٢ .

(٣) المصدر السابق - من ١٩٠ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ .

وقد كان هؤلاء المغنون والمغنيات يقومون بأداء غنائهم
 هذا على آلات موسيقية كانت معروفة في ذلك الوقت
 كالدفوف ومفرده (دف) والمعروف عند العامة (بالطار)
 والشبابات أيضا ومفرده (شبابه) وهو (المزمار)
 أو (الأرغول) والعود الذي كان يطلق على ضاربه عواد وعلى
 ضاربته عواده والرباب ومفرده (ربابه) وهي التي تشبه
 الى حد كبير في عصرنا الحالي (الكمنجة) (١) .

(١) المصدر السابق - ص ٧٢٤ .

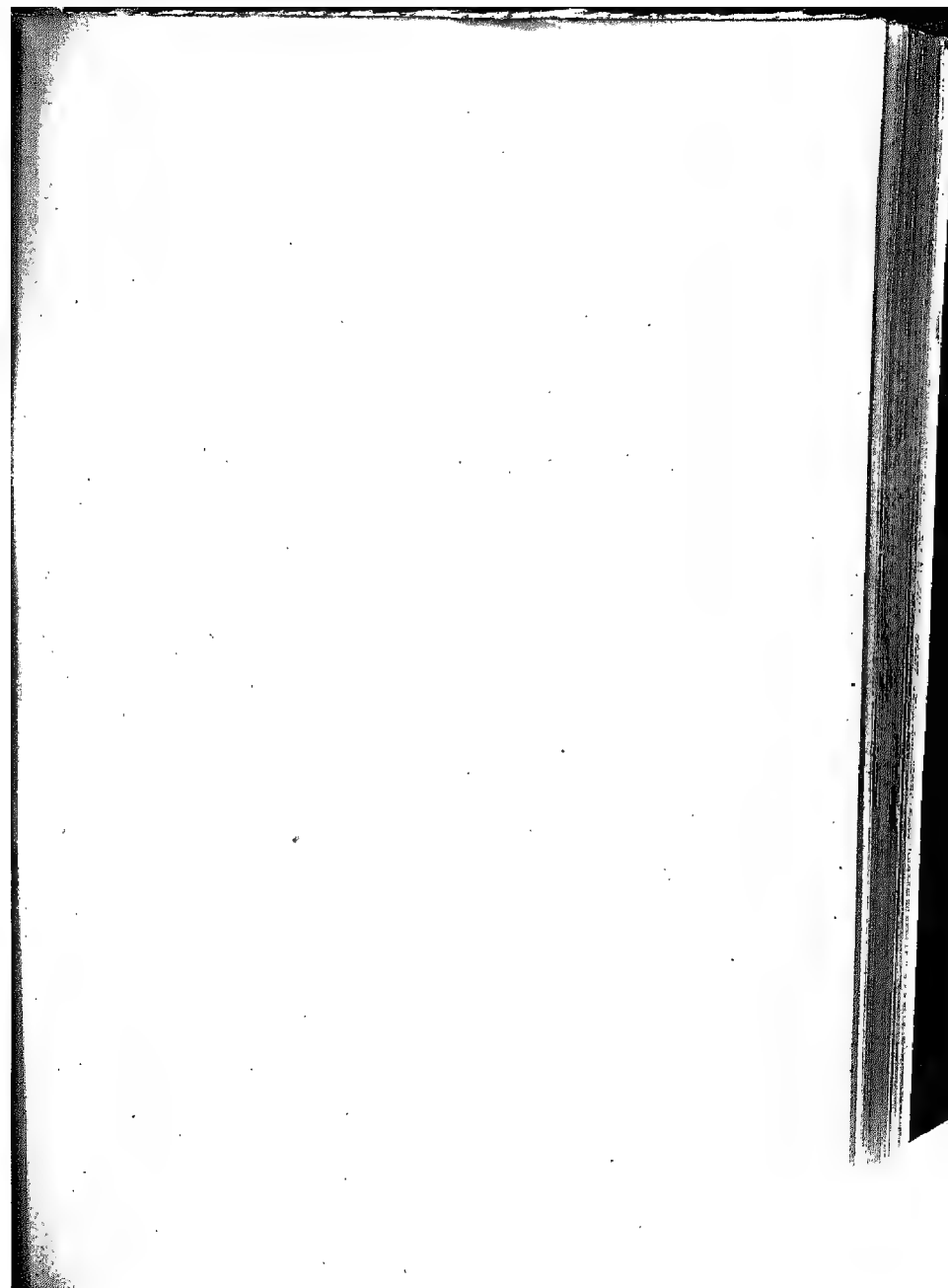
الفصل الخامس

الحركة العلمية في قوص في العصر الاسلامي

مدارس قوص وجوامعها - خزائن الكتب
والمكتبات - العلوم التي كانت تدرس في هذه
المدارس وأساتذتها - الأدب (الشعر والنثر)
• حركة التأليف - النسخ

الحياة الروحية - الربط والزوايا - المتصوفة
ومريدوهم

• الشيعة والمنتشيعون في قوص



الحركة العلمية في قوص في العصر الاسلامي

لقد شهدت قوص في العهد الاسلامي نهضة ثقافية واسعة النطاق لا تقل بحال عما كانت تتمتع به عواصم العالم الاسلامي في ذلك الوقت من تقدم وازدهار كالقاهرة ودمشق وحلب والاسكندرية ، وقد ساعدها على ذلك انها كانت عاصمة الصعيد وكانت من جانب آخر طريقا سهلا ميسورا نحو المشرق والمغرب ، فعرفها على اثر ذلك العديد من العلماء والفقهاء المشارقة والمغاربة في رواجهم وغدوهم من الأراضي المقدسة في مواسم الحج أو في سياحاتهم المختلفة الى المشرق والمغرب . وقد اتخذها الكثير منهم دار مقام لهم حتى وفاتهم ، وقد كان ذلك مدعاة أن ينظر اليها صلاح الدين الأيوبي مؤسس دولة بني أيوب في مصر نظرة بالغة الاهتمام فاتخذها قلعة يضرب من خلالها الشيعة الذين كانوا قد تمركزوا في أغلب مدن الصعيد ، كما سيأتي الحديث فرارا من اضطهاد الأيوبيين لهم ، فانشأ بها العديد من المدارس والجوامع التي تعتنى بتدريس فقه السنة ليقضى بذلك على آراء الشيعة وعقائدهم في الاسلام . وقد اقتفى طريقه من بعده أغلب

سلطين الأيوبيين والمماليك فبالغوا في انشاء هذه المدارس والجوامع وشجعوا كذلك العلماء والفقهاء في تدريس فقه السنة على المذاهب الأربعة وأفرطوا في العطاء لهم ومنحوهم الكثير من الامتيازات والمكافآت ، فتفجرت في قوص على أثر ذلك ثورة ثقافية امتد أثرها الى عواصم العالم الاسلامى وقد تمثلت هذه الثورة فى العديد من المدارس والجوامع التى كانت تكتظ بها هذه المدينة ، وكذا هذا الحشده الهائل من العلماء والفقهاء الذين ينتسبون اليها والذين تفيض بهم كتب التراجم والطبقات التى ألقت فى عصر المماليك ، بالاضافة الى تلك الجموع الغفيرة من طلاب العلم والمعرفة الذين أخذوا يتوافدون عليها من مختلف مدن الصعيد يتلقون على أيدي هؤلاء العلماء والفقهاء العلوم الاسلامية ويتفقهون فى الدين الاسلامى الحنيف .

مدارس قوص وجوامعها :

بلغت المدارس التى أنشئت فى قوص فى عصرى الأيوبيين والمماليك على حد قول الأدفوى فى طالع السعيد (١) والمقرىزى فى خططه (٢) ست عشرة مدرسة من أهمها :

١ - المدرسة النجيبية نسبة الى مؤسسها عبد الله

(١) الادفوى الطالع السعيد ص ٢٧

(٢) المقرىزى الخطط ج ١ ص ٢٣٦

ابن النجيب القوصى المتوفى سنة ٦٤٢ هـ - ١٢٤٤ ميلادية
والتي هى أصب الخير كما يقول أهل قوص .

٢ - دار الحديث السابقة نسبة الى السابق والى
قوص الذى أمر بإنشائها .

٣ - المدرسة النجمية نسبة الى الملك الظاهر
ركن الدين البغدادى الصالحى النجمى الذى أمر بإنشائها
وتعميرها (١) .

٤ - المدرسة الغربية التى تقع على الساحل الغربى
من مدينة قوص (٢) .

٥ - المدرسة الأفرمية التى أنشأها الأفرم أمير
جندار فى عهد السلطان عز الدين أيبك التركمانى .

٦ - المدرسة الشمسية نسبة الى أحمد بن على
الاسنائى المنعوت بالشمس .

٧ - المدرسة السيراجية .

٨ - المدرسة الخاتومية (٣) .

٩ - مدرسة ابن الأسفونى .

(١) ابن الفرات تاريخ ابن الفرات ج ٨ ص ١٣٣ .

(٢) ابن نوح الاقصرى الوحيد ٠٠ ج ١ ورقة ١٨٨ .

(٣) ابن حجر العسقلانى - الدرر الكامنة ج ٣ ص ٦٠٠ .

- ١٠ - مدرسة ابن السديد .
- ١١ - المدرسة السقراطية .
- ١٢ - المدرسة المجدية .
- ١٣ - المدرسة العزية .

١٤ - المدرسة السابقة ، وهي ملحقة بدار الحديث السابقة (١) .

بالإضافة الى هذه المدارس نلمس أيضا عددا من الجوامع والمساجد كان لها دور فعال في نشر العلوم الاسلامية بجانب كونها أماكن للعبادة (٢) والتي من أهمها:

١ - الجامع العمري الذي أنشئ بقوص في أوائل الفتح ثم سمي بالجامع العتيق ثم عرف بعد ذلك بجامع قوص .

٢ - جامع الجلال الذي شيده الجلال القزويني والى قوص .

٣ - جامع الصارم .

٤ - الجامع الأبيض .

-
- (١) راجع هذه المدارس في الادقوى - الطالع السعيد في تراجم متفرقة - الدكتور أحمد أحمد بدوى - الحياة العقلية ٠٠ ص ٥٦ .
- (٢) ابن نوح الوحيد في ورقات متفرقة .

- ٥ - مسجد الفتح .
- ٦ - المسجد المعلق بسوق المغربلين .
- ٧ - المشهد الجيوشي .

وقد كانت العادة المتبعة في ذلك الوقت حين الانتهاء من تشييد هذه المدارس والجوامع أن يحتفل بافتتاحها احتفالا رسميا فيمد السماط ويدعى الأمراء والولاة وعلية القوم والعلماء والفقهاء ثم ينشد الشعراء قصائدهم ويلقى الخطباء خطبهم مادحين بمقرظين هذا العمل الانساني الجليل . وقد ذكر الأدفوى في طالع السعيد الخطبة التي ألقاها أحمد بن محمد بن هبة الله الأرمنتي في افتتاح دار الحديث السابقة التي أنشأها السابق وإلى قوص قال فيها :
 « وأدار حديثها وحديث فضلها وسار بفخرها وعزها
 المثل السائر حتى عز وجود مثلها وشاكنت مهابط وحي
 الله المحجوجة بأهل شرفها وشرف أهلها فأسسست على تقوى
 من الله ورضوان (١) »

وهذه المدارس كانت تخضع لإدارة حازمة رشيدة حيث كانوا يكلون أمر الاشراف عليها وإدارتها لشخص يطلقون عليه « القيم » وهو يشبه الناظر في عصرنا هذا وكان لابد أن يكون هذا القيم أو الناظر عالما فقيها معروفا مشهورا بين الناس بعلمه وفقهه وتقواه يعاونه في ذلك

(١) الأدفوى - الترجمة رقم ٧١ .

المدرسون والمعيدون الذين كانوا يجيبون على أسئلة الطلبة ويوضحون لهم ما كان يغمض عليهم فهمه من دروس ، وكانت تلحق بكل مدرسة مصل أو زاوية لإقامة الشعائر الدينية يتولى أمر الإمامة فيها الطلبة المعروفون بالورع والتقوى ، كما يشرف على إقامة الآذان أيضا من هو مدرّك منهم لمعلومات الميقات (١) .

وقد حظيت هذه المدارس والجوامع والمساجد برعاية الأمراء والسلاطين وأرباب الجاه والثراء ، فأوقفوا الأوقاف والاحباس للانفاق عليها وجعلوا للقائمين بالتدريس في هذه الأماكن من علماء وفقهاء جامكية وهي ما تشبه الراهب كما وهبوا الدارسين أيضا منحا وعطايا من ملابس وماكولات تشجيعا لهم على الاستمرار في الدرس وتحصيل العلوم (٢) .

خزائن الكتب والمكتبات :

ولقد كانت أيضا كل مدرسة من هذه المدارس السابقة الذكر تلحق بها خزائن الكتب أو المكتبات كي تمتد الطلبة والدارسين بالكتب والمراجع التي يصعب الحصول عليها حتى يتسنى لهم زيادة البحث والاطلاع . فخزانة المدرسة النجيبية كانت بها جملة كتب في علوم شتى منها : « عيون الأدلة لابن القصار المالكي المتوفى ٣٩٧ هـ - ١٠٠٦ م وهو

(١) الادفوى الطالع السعيد - الترجمة رقم ٥٤٨

(٢) الادفوى الطالع السعيد - الترجمة تراجم متفرقة

فى نحو من ثلاثين مجلدا « وفى خزانة المدرسة السابقية كذلك « السنن الكبير للبيهقى المتوفى ٣٦١ هـ - ٩٧٢ م » وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى المتوفى ٤٦٣ هـ - ١٠٧٠ م وهو فى أربعة عشر مجلدا « والمعجم الكبير فى الحديث للطبرانى المتوفى ٣٩١ هـ - ١٠٠٠ م » والبسيط فى التفسير للإمام الواحدى المتوفى ٤٦٨ هـ - ١٠٧٥ م (١) . وغالبا ما كانت هذه الكتب ترد الى خزائن هذه المدارس عن طريق الاهداء أو الوقف ، بالاضافة الى أن بعض العلماء الذين كانوا يملكون فى منازلهم مكتبات خاصة يوصون قبل وفاتهم باهدائها الى المدارس أو الجوامع تخليدا لذكراهم وكى يستفيد الطلبة والدارسون منهم (٢) .

وكان طلبة قوص يحرصون كل الحرص على التردد على خزائن الكتب هذه ويقضون الساعات الطوال فى البحث والاطلاع وكان من عادتهم أثناء اطلاعهم أن يتركوا كثيرا من الشروح والتعليقات على هوامش هذه المؤلفات وقد أشار الادفوى فى حديثه عن ابن دقيق العيد انه كان يرحمه الله كثيرا ما يترك علامات على هوامش الكتب التى كان يطالع فيها (٣) وكان يتولى الاشراف على هذه الخزائن

(١) الادفو الطالع السعيد - الترجمة رقم ٤٦٣

(٢) الادفوى الطالع السعيد - الترجمة رقم ٤٦٣

(٣) الادفوى الطالع السعيد - الترجمة ٤٦٣

والمكتبات خازن الكتب وهو الأمين الذى يعاونه الطلبة فى سبيل الحصول على ما يطلبونه من هذه الكتب .

العلوم التى كانت تدرس فى هذه المدارس وأساتذتها :

وأما عن العلوم التى كانت تدرس فى هذه المدارس والجوامع فهى : « علوم الفقه » على مذهب الامامين الشافعى ومالك والتفسير والحديث ، وعلم القراءات ، وعلم الفرائض (المواريث والتركات) والنحو والتاريخ والأدب والجبر والمقابلة والهندسة وعلوم الميقات (١) .

وقد كان لكل علم من هذه العلوم أساتذته المتخصصون الذين يفوقون الحصر ففى علوم الفقه نرى الفقيه الحجة مجد الدين القشيرى الذى يعتبر بحق موسوعة جامعة فى العلوم الفقهية وبصفة خاصة فى فقه الامامين الشافعى ومالك وقد تولى تدريسها فى مدرسة النجيبية فى أول نشأتها وظل كذلك حتى وفاته ، وقد تلقى على يديه أغلب أبناء الصعيد فلا تكاد تخلو ترجمة من تراجم الطالع السعيد من ذكر اسمه والإشارة اليه ثم خلفه ابنه العالم الفقيه تقى الدين ابن دقيق العيد قاضى قضاء المسلمين فى العصر المملوكى الذى استفاد على يديه الكثيرون من أبناء الديار المصرية بصفة عامة : وفى علوم التفسير نرى الامام

(١) وهى علوم الهيئة أو الفلك التى كانت تلعب دورا هاما فى تحديد مواقيت الصلاة ورصد أهلة الأشهر القمرية .

العالم الحسن بن الزبير السبتي القوصي وفي الحديث ابن بنت الجميزي . والسيراجي ، والفخر الفارسي وأبو الحسن البنا ورقية بنت وهب القشيري وفي علم القراءات ناشئ أبو البقاء القوصي الضرير وفي النحو شييت القفطي وفي التاريخ والأدب النميري القوصي ومحمد بن عيسى النصيبيني القوصي وفي الجبر والمقابلة ابن منيع النميري وفي علوم الميقات عثمان بن الحسن المنعوت بالفخر القوصي (١) .

بالإضافة الى أن هذه المدارس قد عرفت نظام الأساتذة الزائرين الذين كانوا يمرون بقوص في مواسم الحج أو في سياحاتهم المختلفة بين المشرق والمغرب من هؤلاء محيي الدين بن عربي وعمر بن الفارض وأبو الحسن الشاذلي وأبي العباس المرسى وغيرهم كثيرون - فيحدثنا عبد الغفار ابن نوح الأقصري في كتابه الوحيد أن أبا العباس المرسى مكث ثلاثين يوما في المدرسة الغربية بساحل قوص وهو في طريقه الى الحج يدرس علوم الحقيقة ، وقد أوضح للطلبة كثيرا من المسائل التي غمض عليهم فهمها (٢) .

وقد اعتنى هؤلاء العلماء والفقهاء بتدريس كتب معينة في هذه العلوم يلزمون الطلبة باجادة حفظها وفهمها ، فمن هذه الكتب في علوم الفقه « فقه الامام الشافعي » التنبيه والمهذب وهما في فروع الشافعية للامام ابي اسحق الشيرازي

(١) راجع هؤلاء العلماء في الطالع السعيد في تراجم متفرقة .

(٢) عبد الغفار بن نوح الوحيد . ج ١ ورقة ١٨٨

المتوفى ٤٧٦ هـ - ١٠٨٣ م - والتعجيز في مختصر الوجيز
لابن موسى الموضلى الشافعى المتوفى ٦٧١ هـ - ١٢٧٢ م -
وفى فقه الامام مالك مؤطاً مالك وفى علوم الحديث صحيح
البخارى وصحيح مسلم والثغفيات وهى طائفة من أجزاء
الحديث للمحافظ أبى عبد الله الأصفهاني المتوفى ٤٨٩ هـ -
١٢٩٠ م وفى التفسير البسيط للامام النيسابورى
المتوفى فى ٤٦٨ هـ - ١٠٧٥ م وفى النحو كان الطلبة
يقرأون مؤلفات سيبويه ويحفظون مقدمة ابن الحاجب
النحوى (١) .

ولم تكن هناك مختصات فى علم معين يفرض على
الطلبة بل من حق الطالب أن يأخذ بنصيب وافر فى كل
علم يرى فى نفسه الكفاءة والمقدرة على استيعابه واجادة
أخذه . وقد كان التقليد المتبع فى هذه المدارس بعد
فراغ العلماء والفقهاء من تدريسهم لهذه الكتب أن يقوموا
بتوزيع بعض من المأكولات والحلوى على طلبتهم احتفالاً
بانتهاء الكتاب الذى تعين شرحه وتدريسه (٢) كما أنهم
كانوا يمنحون الطلبة المتفوقين ما كانوا يسمونه فى العصر
الاسلامى (بالاجازة) وهى شهادة تقرر صلاحية الطالب
للدرس والفتيا . ولم يكن أغلب طلبة قوص يقتنعون
بالدراسة فى هذه المدارس بل كانوا يشتاقون الى مزيد من

(١) الادفوى - الطالع السعيد - فى تراجم متفرقة

(٢) الادفوى - الطالع السعيد - الترجمة ٥٥٥

العلم والمعرفة لذلك نراه بعد فراغهم من الدراسة في هذه المدارس يرتحلون الى القاهرة أو دمشق أو حلب أو الاسكندرية أو يجاورون بمكة ومنهم من كان يرجع الى بلده يطمع في أن يتقلد مناصب رئيسية في الدواوين أو يتولى شئون التدريس ، ومنهم من كان يقيم في المكان الذي رحل اليه حتى وفاته .

وقد تخرج في هذه المدارس العديد من العلماء والفقهاء والمؤرخين والأدباء الذين ساهموا مساهمة فعالة في احياء الثقافة الاسلامية حتى أن أسماءهم ما زال يرن صداها حتى يومنا هذا من هؤلاء : ابن دقيق العيد العالم الفقيه وقاضى قضاة المسلمين في العصر المملوكى وأبى جعفر الادفوى وشهاب الدين النويرى القوصى وابن نوح الأصرى وغيرهم كثيرون .

الأدب وفنونه :

لقد كان للأدب من نظم ونثر في قوص خلال هذه الفترة سوق رائحة ومكانة مرموقة حيث ظهر في مجتمع هذه المدينة كثير من الشعراء والأدباء الذين جادت قرائحهم بالجيد من منظوم الكلام ومنشور وقد ساعد على ذلك عدة أمور منها :

أن مدينة قوص بما اشتهرت به من حسن وبهاء وقيم وازدهار في العصر الإسلامى الذى يؤرخ له كانت حافزا

للشعراء والأدباء أن يتغنوا بها وأن يصفوا حسناتها هذا
وتقسيمها نظماً أو نثراً ، كما أن تركز الطبقة الحاكمة من أمراء
وولاة وحكام وقضاة بهذه المدينة بالإضافة الى أرباب الجاه
والثراء جعلت الشعراء بصفة خاصة يدبجون العديد من
القصائد في مديح هؤلاء القوم أملاً في الوصول الى مناصب
رفيعة في الدواوين أو بغية تكسب وعطاء ، ولعل في طريق
قوص السهل الآمن الى الأراضي المقدسة ما جعل هذه المدينة
تروج رواجاً منقطع النظير في مواسم الحج والعمرة في
الذهاب وفي العودة ، فكان ذلك دون شك كسباً عظيماً
لازدهار الأدب وبصفة خاصة النظم ، فقد استلهم الشعراء
من خلال هذه المواسم القصائد في مدح النبي عليه الصلاة
والسلام وعلى بيته الأطهار ووصف الأماكن المقدسة وفي
تهنئة الحجاج بسلامة عودتهم كما أن الغيرة على العقيدة
الاسلامية والشرعية المحمدية من أن تمس الأباطيل
والترهات أصحاب العقائد والمحن الأخرى كالشيعة الذين
كانت تغص بهم أغلب مدن الصعيد في ذلك الوقت ، دفع ذلك
الكثير من الشعراء الى تمجيد العقيدة الاسلامية وضد
خصومها ، نضيف الى كل ذلك أن العشق والهيام والبعده
والفراق والألم والبكاء ، هذه المعاني كثيراً ما كانت تعتمل
في نفوس أبناء إقليم قوص وتدفعهم الى التعبير عن
أحاسيسهم هذه ومشاعرهم تعبيراً صادقاً أكيداً .

كل هذه العوامل المجتمعة خلقت في مجتمع قوص
نهضة أدبية ذاع صيتها في مختلف العواصم والبلدان ،

وقد تعددت أغراض النظم فظهرت قصائد المديح والغزل
والرثاء والهجاء والموال الذي يحكى لونا من ألوان الفن
الشعبي « الفولكلور » يردده القوالون والمنشدون على أنغام
الدفوف والشبابات ، كما أنه في مجال النثر نلمس
الرسائل الديوانية والاخوانية والخطب المنبرية والمحفلية
والمقامات .

وقد عاش في إقليم قوص كثير من الشعراء والأدباء
الذين تحدث عنهم أبو جعفر الادفوى كمحمد بن محمد بن
عيسى النصيبيني القوصي (١) ومحمد بن فضل الله كاتب
المرج القوصي (٢) وتاج الدين أبي الفتح محمد بن الدشناوى
القوصي (٣) وأحمد بن كامل القوصي الملقب بالصلاح (٤) ،
ولعل أبرز هؤلاء جميعا البهاء زهير الشاعر المعروف الذي
عاش شطرا طويلا في مسقط رأسه في هذه المدينة
ومعه صديقه المعروف بجمال الدين بن مطروح الذي تزج
من مدينة أسيوط وأقام في قوص فترة طويلة .

الكتابة والتأليف :

وفي مجال التأليف نجد الكثير من المؤلفات في

(١) الادفوى - الطالع السعيد - الترجمة رقم ٤٧١

(٢) المصدر السابق الترجمة رقم ٤٧٠

(٣) المرجع السابق - الترجمة رقم ٣٨٩

(٤) المصدر السابق - الترجمة رقم ٥٩

علوم شتى كالفقه والحديث والتفسير والأدب ، فقد شرح كثير من أبناء قوص عددا من الكتاب فى هذه العلوم وذلك ما هو ملموس عند العالم الفقيه ابن دقيق العيد الذى ترك كثيرا من الشروح فى علوم الفقه (١) - كما أرى شهاب الدين النويرى القوصى الذى تخرج فى مدارس قوص قد ترك موسوعة فى التاريخ والأدب تقع فى ٢٠ مجلدا بعنوان نهاية الأرب فى فنون الأدب ما زالت تعد مرجعا أساسيا لجميع الباحثين والدارسين حتى يومنا هذا وقد خلف لنا أيضا أحمد بن حامد شهاب الدين القوصى معجما يقع فى أربعة مجلدات سماه تاج المعاجم (٢) أشار إليه حاجى خليفة باسم معجم (الشيوخ) (٣) ذكر فيه من لقيه من المحدثين ، وعبد الغفار بن نوح الأقصرى الذى ترك أيضا كتابا فى جزئين بعنوان « الوحيد فى سلوك أهل التوحيد » يعتبر مرجعا هاما للوقوف على وجه مجتمع الصعيد فى عصر المماليك بالإضافة الى أنه قد تحدث عن كثير من رجال التصوف والفقهاء الذين عاصروهم أو أخذ عنهم ، وأبو جعفر الادفوى وكتابه الطالع البعيد الجامع لأدباء الصعيد وقد حوى ٥٩٤ خمسمائة وأربعة وتسعين ترجمة لعديد من العلماء والفقهاء

(١) المصدر السابق - الترجمة رقم ٤٦٣

(٢) المرجع السابق - الترجمة رقم ٨٧

(٣) حاجى خليفة - كشف الظنون ص ١٧٣٥

والمتصوفة الذين عاشوا بأرض الصعيد في عصرى
الأيوبيين والمماليك ، ومحمد بن عبد العزيز بن أبى القاسم
الادريسي وكتابه المفيد قيمن دخل الصعيد « (١) ذكره
حاجى خليفة باسم « المفيد فى أخبار الصعيد » مفقود ، وغير
ذلك كثير من المؤلفات المتشرة فى مختلف ترجمات
« الطالع السعيد » للدافوى .

حركة النسخ :

لقد كان أغلب أبناء قوص أصحاب همم عالية
ونشاط ملحوظ فى نسخ أمهات كتب التراث ساعدهم
على ذلك شغفهم بالعلم وحسن خطهم وجودته وبهائه
بالإضافة الى توافر أدوات الكتابة من أحبار وأقلام
وأوراق ، فقد ورد أن النويرى كتب صحيح البخارى عدة
مرات (٢) وأنه كان يتكسب من خلال هذا العمل كما أن
الشيخ محمد إبراهيم أبو الطيب (٣) السبتي القوصى
كتب بخط يده كتاب سيبويه ، بالإضافة الى أن الكثير من
العلماء والفقهاء من أبناء قوص كانوا ينسخون القرآن
الكريم وكتب الحديث ويضعونها فى ديارهم تبركا
ويورثونها لأبنائهم من بعدهم ، وكان الأبناء يعتبرون ذلك
ارثا مقدسا يعتزون به ويصونونه من التلف أو الضياع .

(١) الطالع السعيد ترجمة رقم ٤٣٩

(٢) الطالع السعيد ترجمة رقم ٥١

(٣) الطالع السعيد ترجمة رقم ٣٧٦

الحياة الروحية :

لم تكن الحياة الروحية فى مدينة قوص فى العهد الاسلامى اذا قيسـت بالنهضة العلمية والثقافية التى سبق لنا الحديث عنها شيئاً ذا قيمة يلفت نظر الباسـاحـت أو الدارس بالاهتمام والتقدير وذلك لعدة أسباب نراها فى اعتقادنا وهى أن مدينة قوص بما كانت عليه من تقدم وازدهار فى جانب الحياة الاقتصادية نتيجة لأسواقها العديدة وكثرة الداخل فيها والخارج منها من تجار وأرباب معاشات ، ترتب عليه مزيداً من الصخب والضجيج والضوضاء لم نلاحظه فى أية مدينة من مدن الصعيد فى هذه الفترة ورجال التصوف وأرباب الأحوال والمقامات يميلون دائماً لطبيعتهم الى حياة الهدوء والسكينة والاطمئنان لذلك لم يطيّبوا نفساً بالاقامة فى قوص ودليلنا على ذلك أن السيد القنائى رضوان الله عليه حيثما هاجر من مكة الى الديار المصرية فى أوائل النصف الثانى من القرن السادس الهجرى نزل بقوص ولم يمكث بها أكثر من بضع ليال وذلك لصخبها وعدم هدوئها ورحل منها الى مدينة قنا التى كانت فى ذلك الوقت تتمتع بالهدوء والسكينة ، وقد كان لاقامة السيد القنائى فى هذه المدينة أعنى قنا أثر عظيم فى نهضة الحياة الروحية بها فإذا كانت قوص فى العصر الاسلامى تعتبر مركزاً من مراكز الاشعاع الثقافى والعلمى فان مدينة قنا فى ذلك الوقت كانت أيضاً مركزاً هاماً من مراكز الاشعاع

الروحي في الديار المصرية بوجه عام في القرن السادس والسابع من الهجرة وذلك نتيجة لاقامة السيد القنائي بها الذي كان يعتبر بحق صاحب أكبر مدرسة في التصوف الاسلامي شهدها الصعيد في القرن السادس الهجري ، وكان ذلك مدعاة الى أن تهفو الى هذه المدينة قلوب الكثرين من رجال التصوف والمريدين فنحن نرى أن الشيخ أبا الحسن الصباغ القوصي الذي ولد وتربى في قوص رحل منها الى قنا وأقام بها اقامة دائمة ليكون بذلك قريبا من أستاذه وشيخه السيد القنائي، وظل كذلك الى أن توفي ودفن بها . وكان السيد أبو الحجاج الأقصري أيضا كثير السفر الى هذه المدينة لحضور حلقات درس شيخه السيد القنائي بالاضافة الى عديد من شيوخ التصوف وأعيانه في صعيد مصر في ذلك الوقت كالشيخ مفرج الدماميني ومجد الدين القشيري وآلاف من المريدين الذين يصعب حصرهم ، وقد صدق في ذلك قول الادقوى أن هذه المدينة عش الصالحين ومأوى العارفين ، خرج منها أرباب مقامات وأحوال ومكاشفات . واستفاض أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم بها وقال : « انها تقدرت بابنى عبد الرحيم » (١) .

وليس معنى ذلك أن مدينة قوص لم يكن لها نصيب في جانب الحياة الروحية على الإطلاق بل على العكس كانت

هناك هذه المدينة تتألق روحيا في موسم الحج والعمرة وكذا في شهر رمضان وخصوصا في العشر الأخيرة منه ، ففي موسم الحج والعمرة كانت هذه المدينة تحظى باستضافة كثير من كبار رجال التصوف في جهادهم الى الأراضى المقدسة وحين عودتهم وقد سبق لنا الإشارة الى ذلك وقد كان هؤلاء الصفوة الأخيار يعقدون حلقات الوعظ والدرس في الزوايا والربط والمدارس التي كانت منتشرة في هذه المدينة ، وكان يشيع في جو هذه الحلقات أسمى معاني الحياة الروحية على الاطلاق حيث كان الطلبة والمريدون وأبناء قوص عموما يلتفون حولهم في نهم بالغ للاستفادة والتبرك ، كما انه في ليالى شهر رمضان المعظم كانت هذه المدينة تشهد أيضا اجتماع الفقراء المتجردين أى الصوفية الذين انقطعوا الى الله سبحانه وتعالى في الربط والزوايا مثل رباط الشيخ أبى الحسن الصباغ القوصى وأبى العباس الملتزم وعبد الغفار بن نوح الأقصرى وزاوية ابن الأفرم (١) يؤدون أذكابهم ويعقدون حلقات السماع (٢) التي كانت تمتد حتى مطلع الفجر .

(١) ابن بطوطة - الرحلة ج ١ ص ٢٩

(٢) السماع : الذكر المصحوب بالانشاد على الآلات الموسيقية كالدف والطنبور والعود .

الشيعية والمتشيعون في قوص :

من الواضح تاريخيا أن مدينة قوص بعد سقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٨ هـ - ١١٧٢ م وقيام الدولة الأيوبية ٥٦٩ هـ - ١١٧٣ م على يد الناصر صلاح الدين الأيوبي الذي عمل جاهدا هو ومن جاء بعده من سلاطين الأيوبيين والمماليك على تقويض دعائم المذهب الشيعي واهياء تعاليم المذهب السننى (١) - نقول ان هذه المدينة وتوابعها في صعيد مصر كانت على أثر ذلك تكتظ بالعديد من الشيعة الكذين لاذوا بأغلب هذه المدن على أثر كسر شوكتهم ، وحينما أحسوا بنصيب من القوة راودتهم فكرة استرجاع ماضيهم السليب فاتخذوا من مدينة أسوان في جنوب الديار المصرية مركزا لدعوتهم في احياء تعاليم مذهب الشيعة وتزعم أحد قادة الفاطميين ، الذى كان يدعى كنز الدولة هذه الفكرة وأخذ يروج لها بين فلول الشيعة في مختلف مدن الصعيد وجاهدوا فى سبيل انتاج هذه الفكرة وأعدوا جيشا واتجهوا به الى مدينة قوص للاستيلاء عليها واتخاذها بحكم موقعها الجغرافى مركز اشعاع لاهياء تعاليم المذهب الشيعي ، واسترجاع مجد الدولة الفاطمية وكان ذلك فى عهد صلاح الدين الأيوبي الذى تنبه لهذا الخطر فنشط نشاطا ملحوظا لاختماد هذه الحركة فأرسل

(١) دكتور محمد كامل حسين دراسات فى الشعر فى عصر

الأيوبيين ص ٣٣

آخاه الملك العادل سيف الله في سنة ١١٧٤ ميلادية على رأس جيش قوى استطاع أن يقضى به على كنز الدولة هذا وأعوانه قضاء مبرما (١) وفر من بقي من أتباعه الى بعض مدن الصعيد كاسنا وأسفون وأرمنت ، فلم يهدأ صلاح الدين الأيوبي بالا بل عمل جاهدا على تطهير أرض الصعيد وبصفة خاصة مدينة قوص من رواسب المذهب الشيعي ، فأنشأ المدارس وشجع العلماء والفقهاء ورجال الصوفية في القضاء على مذهب الشيعة ونشر تعاليم مذهب السنة كما سبق أن أشرنا . ولقد كان الشيعي أمام سلطان العلماء والفقهاء يتخلى عن عقيدته ويعتنق مذهب أهل السنة فقد ورد أن الامام جلال الدين الدشناوي قال يوما للشاعر الأديب محمد بن محمد بن النصيبيني القوصي وكان متشيعا « أنت رجل فاضل » ومن أهل الحديث « وجمع ذلك أشاهده عليك شيئا ما هو بعيد أن يكون في عقيدتك ، فما كان من النصيبيني القوصي هذا على أثر سماعه لهذا القول إلا أن تخلى عن مذهب الشيعة الذي كان يعتنقه ويتعصب له واعتنق مذهب أهل السنة (٢) .

(١) الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - الحركة الصليبية ج ٢

ص ٧٣٢

(٢) الادفوى - الطالع السعيد ص ٦٢٧

الفصل السادس

الآثار الإسلامية بمدينة قوص



الآثار الاسلامية بمدينة قوص

تعتبر مدينة قوص بحكم كونها عاصمة الصعيد في العصر الاسلامي ومقر الولاية والأداة الحاكمة أغنى مدينة في اقليم قوص على الاطلاق بالآثار الاسلامية فقد اعتنى الأمراء والحكام والولاة بتشبيد العديد من الجوامع والمدارس كما اعتنوا باقامة الربط والزوايا والحمامات وأحواض السبيل ، بالإضافة الى أنه كانت بظاهر قوص جبانة مترامية الأطراف تضم رفاة العديد من العلماء والأولياء الصالحين . وقد اندثرت أغلب هذه الأماكن ولم يبق لها من أثر سوى الجامع العمرى والجبانة الاسلامية .

فالجامع العمرى بقوص يعتبر من أقدم المساجد الأثرية بالصعيد ، فقد أنشئ في عهد عمرو بن العاص في أوائل الفتح ولذلك سمي بالمسجد العمرى نسبة اليه ، ثم عرف بعد ذلك بالجامع العتيق ، وفي عصر المماليك أطلق عليه جامع قوص ، وفي عهد الدولة الفاطمية تدعى ببناء هذا الجامع فجده أمير المؤمنين الفائز بنصر الله وأقام فيه منبرا عليه لوحة من الخشب تشتمل على العبارة الآتية مكتوبة بخط كوفي مشجر وذى حروف صغيرة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، ادع الى سبيل »
 « ربك بالحكمة والموعظة الحسنة أمر بعمل هذا »
 « المنبر المبارك الشريف مولانا وسيدنا الامام »
 « الفائز بنصر الله أمير المؤمنين صلوات الله »
 « وسلامه عليه وعلى آبائه وأبنائه الطاهرين »
 « المنتظرين على يد فتاه وخليله السيد الأجل »
 « الملك الصالح ناصر الأئمة وكاشف الغمة »
 « أمير الجيوش سيف الاسلام غياث الانام كافل »
 « قضاء المسلمين وهادى دعاة المؤمنين عضد »
 « الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين »
 « وأدام قدرته وأعلى كلمته فى سنة ست »
 « وخمسين وخمسمائة » .

ويشبه هذا المنبر فى شكله منبر الخليل والمنبر
 الموجود فى جامع دير سانت كاترين بطور سيناء على أن
 جنبه يكسوهما زخارف من حشوات تكون أشكالا
 هندسية من مستطيلات ونجوم مسدسات ممدودة مغطاة
 كلها بفروع نباتية ومراوح نخيلية وعناقيد عنب ، وفى
 القسم الاسلامى من متاحف برلين حشوة من هذا الطراز
 حتى ليظن أنها مأخوذة من هذا المنبر (١) ، ويعتبر هذا
 المنبر من أقدم المنابر فى جمهورية مصر العربية فقد
 أنشئ عام ٥٥٠ هـ - وقد شاهد الجغرافى العربى الشريف

(١) دكتور زكى محمد حسن - كنوز الفاطميين فى مصر - ص ٢٢٢

الادريسي هذا المنبر حينما زار قوص ، وأشار الى ذلك فى حديثه عن هذه المدينة (١) .

وبهذا الجامع أيضا محراب يرجع الى العصر المملوكى قد زخرفت واجهته بزخارف جصية قوامها عناصر نباتية وهندسية بديعة التكوين وتشبه زخارف هذا المحراب زاوية زين الدين يوسف وكذا المحراب المملوكى فى جامع عمرو بن العاص ويحيط بالمحراب كتابة بالخط الثلث المملوكى نصها :

« انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم
« الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش
« الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين
وحول قبة المحراب قوله تعالى :

« قد نرى تقلب وجهك فى السماء »

وفى النهاية البحرية للبائكة الرابعة والخامسة من ايوان القبلة توجد مقصورة من الخشب الخروط على جانب عظيم من الأهمية فى الجانب الشرقى من المقصورة باق على صورته الأولى ويتكون من حشوات بها زخارف محفورة حفرا عميقا وكذا الجانب الغربى وكذا باب المقصورة مكون من حشوات سداسية الشكل يحيط بها من أعلى وأسفل

(١) الشريف الادريسي - نزعة المشتاق - ص ٤٩

أشرطة من خشب الخرط الذى انتشر استعماله فى العصر المملوكى .

وبداخل هذه المقصورة يوجد كرسى مصحف مغطى بقماش خلق وهو من الخشب المصنوع بطريق الحشوات المجمعة والمطعم بالعاج والصدف ويحيط بالكرسى شريط من الكتابة بالخط النسخ المملوكى وتتكون من آية الكرسى والنص الآتى :

« أمر بإنشاء هذا المصحف المبارك المقر الكريم »
 « العالى المولى الأميرى الأجل عز الدين خليل »
 « الملك الناصرى أعز الله أنصاره بمحمد وآله »

ومن المرجح أن يكون منشىء الكرسى والمقصورة هو منشىء المحراب ، أى انها جميعا ترجع الى أوائل القرن الثامن الهجرى .

ويحتوى المسجد أيضا على لوح تذكارى آخر مثبت على باب الميضأة قد نقش فى وسطه شكل مشكاة ثم كتب تحته اسم المقرئ الشيخ الصالح جمال الدين محمد الناجى وتاريخ وفاته يوم الجمعة ١٩ رمضان سنة ٧١٧هـ .

وقد أدخلت على هذا الجامع كثير من التغييرات والتشييدات التى أفقدته فى الواقع الكثير من معالمه الأصلية ، فمن أهم هذه الاصلاحات والتشييدات ، تلك العمارة التى قام بها الأمير محمد كاشف فى سنة ١٢٣٣هـ .

وقد أنبت الأمير محمد كاشف عمارته للمسجد في ثلاثة مواضع ، أحدها في لوح صغير مثبت في صحن المسجد والثاني في لوح رخام مؤرخ سنة ١٢٣٣ هـ مثبت على باب الميضأة السابق ذكره ، أما اللوح الثالث فقد ثبت على مدخل المسجد وكتب عليه النص التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على
« سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ،
« الحمد لله الذي وفق من عباده ما أراد بتجديد
« ما أعد لطهارة العبادة للصلاة المفروضة
« وتوابعها على لسان الحبيب المخلص بها كل
« مطيع وعتيد ، والصلاة والسلام على من
« أرسل لكافة المخلوقات على توالي الأيام
« والساعات واللحظات وعلى آله وصحبه
« الطاهرين الذين هم شيدوا الشريعة والدين
« صلاة وسلاما دائمين الى يوم الدين وبعد فقد
« جدد هذا المحل وما اشتمل عليه الجامع
« العتيق بمدينة قوص حضرة الجنب المكرم
« محمد كاشف قهوجى كاشف مدينة قوص
« راجيا الثواب الجزيل من المولى الجليل بقوله
« وهو أصدق القائلين (انما يعمر مساجد الله »

« من آمن بالله واليوم الآخر) وعمارة المحل »
 « من ماله خاصة في سلخ شهر ذى الحجة ختام »
 « سنة ١٢٣٣ للهجرة النبوية » (١) .

ويضيف على باشا مبارك في حديثه عن قوص :
 انه في شهر رمضان سنة ٦٧٢ هجرية أتى الى الملك الظاهر
 بيبرس بفلوس وجدت مدفونة في قوص على أحد وجهها
 صورة ملك واقف وفي يده اليمنى ميزان وفي اليسرى
 سيف وعلى الوجه الآخر رأس فيه اذن كبيرة وعين مفتوحة
 وبدائرة الفلس كتابة قرأها راهب يوناني فكان تاريخه
 الى وقت قراءته ألفين وثلثمائة سنة وفيه أنا (غياث الملك
 ميزان العدل والكرم في يميني لمن أطاع والسيف في
 يساري لمن عصى وفي الوجه الآخر أنا غياث الملك أذني
 مفتوحة لسماع المظلوم وعيني مفتوحة أنظر بها مصالح
 ملكي) (٢) .

ونحب أن نقول في ختام حديثنا عن الآثار الاسلامية

(١) الدكتور سعاد ماهر - محافظات الجمهورية العربية المتحدة
 ص ٣٣ - ٣٦

(٢) راجع أيضا لجنة حفظ الآثار العربية القديمة - المجموعة
 ال ١٧ ص ١٠٨ (١٠٩)

فى مدينة قوص أن هذه المدينة فى اعتقادنا تزخر بكثير
من آثارنا الإسلامية التى يتعين على رجال الآثار الإسلامية
أن يتجهوا الى التنقيب عنها فقد تفيد كثيرا فى تاريخ
حضارتنا الإسلامية •

مصادر البحث

أولا - المخطوطات :

- ١ - عبد الغفار بن نوح الأقصرى ، الوحيد فى سلوك أهل التوحيد فى جزئين مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٦ تصوف .

ثانيا - المصادر والمطبوعات :

- ٢ - ابن بطوطة ، الرحلة - المطبعة الأزهرية - القاهرة ١٩٣٧ .
- ٣ - ابن تغر بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٢٩ .
- ٤ - ابن جبير - الرحلة - تحقيق د . حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٢ .
- ٥ - ابن الجيعان - التحفة السنية لأسماء البلاد المصرية - بولاق ، ١٨٩٨ .
- ٦ - حاجى خليفة - كشف الظنون بأسماء الكتب والفنون - ١٩٤٧ .

قوس - ١٨٨٧

- ٧ - ابن حجر العسقلاني - الدرر الكامنة في أعيان
المثناة الثامنة - نشر وتحقيق سيد جاد الحق القاهرة
١٩٦٦ .
- ٨ - ابن خلدون - المقدمة - بيروت ١٨٧٩ .
- ٩ - الادفوى - الطالع السعيد - الجامع لأسماء نجباء
الصعيد - نشر سعد محمد حسن القاهرة ١٩٦٦ .
- ١٠ - الادريسي - نزهة المشتاق في اختراق الآثار -
ليدن ١٨٥٢ .
- ١١ - ابن دقماق - الانتصار بواسطة عهد الأمصار ج ٥
- القاهرة ١٩٠٩ .
- ١٢ - السمعاني - الانساب - ليدين مطبعة بريل ١٩١٢ .
- ١٣ - شهاب الدين القلقشندي - صبح الأعشى في صناعة
الانشاء - القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩١٧ .
- ١٤ - أبو صالح الأرمني - تاريخ أبي صالح الأرمني
المعروف بكنايس وأديرة مصر اكسفورد ١٨٩٥ .
- ١٥ - صفى الدين بن عبد الحق - مرصد الاطلاع - برلين
١٨٩٥ .
- ١٦ - عبد الرحمن بن نصر الشيزري - نهاية الرتبة في
طلب الحسبة - نشر وتحقيق دكتور الباز العريني -
القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٦ .

- ١٧ - ابن العماد الحنبلى - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب - القاهرة ١٣٥٠ هـ .
- ١٨ - أبو الفدا - تقويم البلدان - باريس - ١٨٥٠ .
- ١٩ - ابن الفرات - تاريخ مصر - بيروت - المطبعة الأمريكية ١٩٣٦ - ١٩٣٨ .
- ٢٠ - ابن ممتى - قوانين الدواوين - تحقيق جورج سوريال عطية - القاهرة ١٩٤٣ .
- ٢١ - المقدسى - أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم - ليدن ١٩٠٦ .
- ٢٢ - المقرئى - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار الموسوم بالخطط فى جزئين - بولاق - ١٢٧٠ هـ .
- ٢٣ - البيان والاعراب عما حل بأرض مصر من أعراب - نشر وتحقيق عبد المجيد عابدين - القاهرة - عالم الكتب ١٩٦١ .
- ٢٤ - السلوك لمعرفة دول الملوك - دار الكتب المصرية - حققه ووضع حواشيه د . محمد مصطفى زيادة ، ١٩٣٤ .
- ٢٥ - ناصر خسرو - سفر ناما (بالفارسية) ترجمة الدكتور يحيى الحشاش - القاهرة ١٩٤٥ .
- ٢٦ - الياضى - مرآة الجنان وعبرة اليقظان - طبعة حيدر آباد - ١٣٣٨ .

٢٧ - ياقوت الرومي - معجم البلدان - القاهرة ١٩٠٦

ثالثاً - المراجع الحديثة :

٢٨ - د. أحمد أحمد بدوي - الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية - القاهرة - مكتبة النهضة المصرية

١٩٥١

٢٩ - بتار « مستشرق انجليزي » الفتح العربي لمصر -

نقله الى العربية محمد فريد أبو حديد - القاهرة ،

دار الكتب المصرية ١٩٣٣

٣٠ - حسن ابراهيم حسن - تاريخ الاسلام السياسي

في ثلاثة أجزاء - القاهرة ١٩٥٨

٣١ - حسن ابراهيم حسن - الفاطميون في مصر -

القاهرة - المطبعة الأميرية ١٩٣٢

٣٢ - حسن أحمد محمود - الاسلام والثقافة العربية في

افريقيا - القاهرة ١٩٦٣

٣٣ - دائرة المعارف الاسلامية - الترجمة العربية

بإشراف لجنة من الأساتذة - القاهرة - زانباور -

معجم الانساب والأسرات الحاكمة في التاريخ

الاسلامي - القاهرة ١٩٥١

٣٤ - د. زكي محمد حسن - كنوز القباطيين -

القاهرة ١٩٣٥

١٩٣٣

٣٥ - دكتورة / سعاد ماهر - محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية - القاهرة ، المجلس الأعلى لرعاية الشؤون الإسلامية ١٩٦٦ .

٣٦ - د سعيد عبد الفتاح عاشور - الحركة الصليبية - القاهرة الأنجلو ١٩٦٣ .

٣٧ - د صبحى لبيب - التجارة الكارمية في مصر في العصور الوسطى - مقال منشور بالمجلة المصرية التاريخية . المجلد الرابع - العدد الثاني - مايو ١٩٥٢ .

٣٨ - د عبد الرحمن زكي - الاسلام والمسلمون في شرق أفريقيا - القاهرة معهد الدراسات العربية ١٩٤٥ .

٣٩ - د مصطفى مشرفة - نظم الحكم في مصر في عصر الفاطميين - القاهرة دار الفكر العربى ١٩٤٨ .

٤٠ - د عمر رضا كحالة - معجم القبائل العربية - المطبعة الهاشمية دمشق ١٩٤٩ .

٤١ - د على ابراهيم حسن - مصر في العصور الوسطى من الفتح العربى الى الفتح العثمانى - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٩ .

٤٢ - على ياشا مبارك - الخطط التوفيقية - بولاق - ١٣٠٦ .

- ٤٣ - محمد شملول الشريف - عروبة مصر من قبائلها
- القاهرة ١٩٦٥ .
- ٤٤ - محمد رمزي - القاموس الجغرافي - القاهرة -
دار الكتب المصرية ١٩٥٤ .
- ٤٥ - محمد عبده الحجاجي - شخصيات صوفية في
صعيد مصر في العصر الاسلامي - القاهرة
١٩٧١ .
- ٤٦ - محمد كامل حسين - دراسات في الشعر في
عصر الأيوبيين - القاهرة ١٩٥٧ .
- ٤٧ - لجنة حفظ الآثار العربية القدية - القاهرة -
بولاى ١٩٠٢ .

فهرس

٣	الاهداء
٥	تمهيد

١٣ الفصل الأول

١٥	- التقسيم الادارى لاقليم قوص فى العصر الاسلامى
	- القبائل العربية التى سكنت هذا الاقليم منذ الفتح
٢٤	العربى حتى أواخر حكم الأيوبيين

٣٣ الفصل الثانى

٣٣	قوص
٣٥	- الموقع الجغرافى
	- قوص من خلال كتابات المؤرخين والجغرافيين
٤٠	والرحالة العرب فى العصر الاسلامى

٥٥ الفصل الثالث

٥٧	- بناء المجتمع القوصى فى العصر الاسلامى
----	---

٧٣ الفصل الرابع

٧٥ - الحياة بوجه عام في مجتمع قوص في العصر الاسلامي

٩١ - وسائل اللهو والتسلية في مجتمع قوص . .

٩٧ الفصل الخامس

٩٩ - الحركة العلمية في قوص في العصر الاسلامي .

١١٤ - الحياة الروحية

١١٧ - الشيعة والمتشيعون في قوص

١١٩ الفصل السادس

٢١ - الآثار الاسلامية بمدينة قوص

٢٩ - مصادر البحث

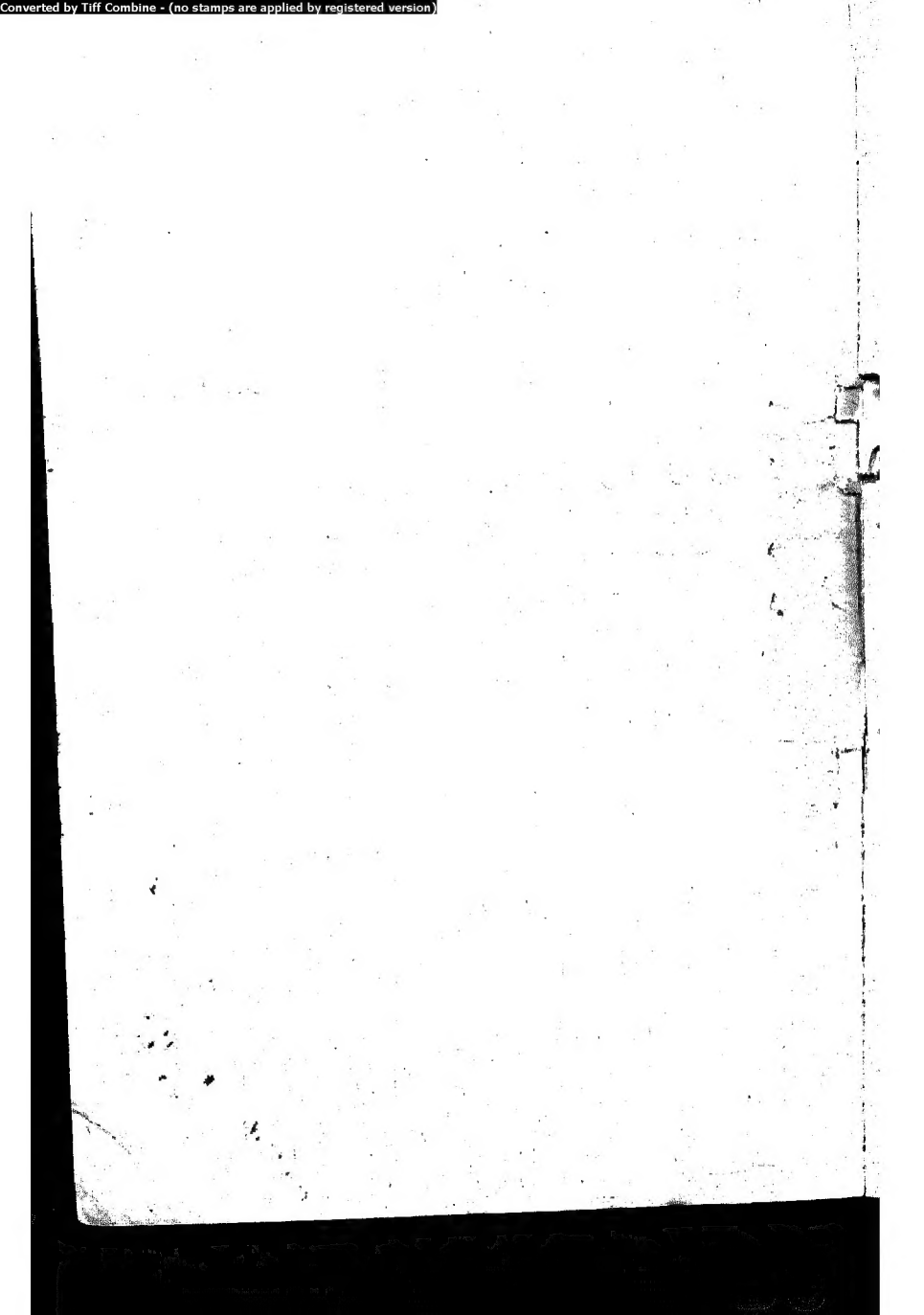
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٣٧٧٦ / ١٩٨٢

ISBN

٩٧٧ - ١ - ٤٣ - ٩

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية



هذا الكتاب :

● قوص مدينة ضاربة في التاريخ ، تقع على النيل من
البر الشرقى فى الجنوب ، حازت على مكانة مميزة فى
عصورها التاريخية ، ولكنها فى العصر الاسلامى
اكتسبت تاريخا حافلا بالأحداث والمواقف الخالدة . .
فكانت مقصدا لعدد من الجنسيات المختلفة التى
تفاعلت بمضى الزمن فى سهولة ويسر مع اهلها
الأصليين حتى أصبح مجتمعها نموذجا لطبقات
المجتمع المختلفة .

العدد ١٥ قرشا